مصطفى محمود



القرآن كائن حي

مصطفى محمود

القرآن كائن حيّ

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

القرآن كائن حيّ

اللغة القرآنية تختلف عن لغتنا التى نكتب بها أو نتكلم بها فى أنها محكمة لا خطأ فيها ولا نقص ولا زيادة.

وقد كثر الكلام عن الآيات الكونية التى تحدثت عن النجوم ومساراتها والأرض وخلقها والحياة وبدايتها.. وكيف جاءت العلوم الحديثة بالجديد المبهر من الحقائق خلال مئات السنين التى أعقبت التنزيل القرآنى، فلم تخرق حرفًا قرآنيا واحدًا، ولم تنقض آية، بل توافقت جميعها مع كلام القرآن وزادته توكيدًا.

كما جاء القرآن فى نظم الحكم وفى الاقتصاد، وفى الأخلاق وفى حقوق الإنسان، وفى الأسرة وفى الزواج والمرأة، والشرائع بالكلمة النهائية الجامعة.

كما انفرد بذروة فى البلاغة، وقمة فى البيان وجمال فى الأسلوب لم يطاوله فيه كتاب.. وقد أفاض القدماء فى هذا وأغنونا.

لكن يظل هناك وجه معجز من وجوه القرآن ربما كان أهم من كل هذه الوجوه.. يحتاج إلى وقفة طويلة.. وهو ما أسميته بالمعمار أو البنية الهندسية، أو التركيب العضوى أو الترابط الحى بين الكلمة والكلمة.

وما أشبه القرآن فى ذلك بالكائن الحى.. الكلمة فيه أشبه بالخلية.. فالخلايا تتكرر وتتشابه فى الكائن الحى، ومع ذلك فهى لا تتكرر أبدًا.. وإنما تتنوع وتختلف.. وكذلك الكلمة القرآنية فإننا نراها تتكرر فى السياق القرآنى ربما مئات المرات، ثم نكتشف أنها لا تتكرر أبدًا برغم ذلك، إذ هى فى كل مرة تحمل مشهدًا جديدًا.. وما يحدث أنها تخرج بنا من الإجمال إلى التفصيل.. وأنها تتفرع تفرعًا عضويًّا.. تمامًا مثل البذرة التى تعطى جذرًا وساقًا ثم أغصانًا ثم أوراقًا ثم براعم ثم أزهـارًا ثم ثمارًا، وهى فى كل مرة لا تخرج عن كونها نبات البرتقال.. ولكنها عبر هذا التفصيل تعطينا فى النهاية حقيقة نبات البرتقال.. وذلك هو الترابط العضوى أو المعمار الحى.. والقرآن بهذا المعنى يشبه جسمًا حيًّا.. والكلمة القرآنية تشبه كائنًا حيًّا أو خلية جنينية حية، فهى تتفرع عبر التكرار الظاهر لتعرض مشاهد يكمل بعضها بعضًا تمامًا كما تنقسم خلية الجنين لتعطى خلايا الرئتين والقلب والكبد

والأحشاء والعظام والجهاز العصبى إلى أن تعطينا فى النهاية إنساناً كاملا.. وقد جاء كل هذا التنوع من خلايا متشابهة.. فذلك هو التفصيل الذى كان مجملا فى الخلية الأولى للجنين.

وكمثال نأخذ كلمة «العلم» فى القرآن.

فنجد أن العلم يأتى فى البداية مجملا بمعنى النظر فى خلق السموات والأرض.. ثم نجد هذا النظر يأتى بعد ذلك مفصلا.. ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت، وإلى السماء كيف رُفِعَت، وإلى الجبال كيف نُصبت، وإلى الأرض كيف سُطحت﴾.
(١٧ - ٢٠ الغاشية).

وهذه هى علوم الأحياء والفلك والجيولوجيا والجغرافيا كما نعرفها الآن..

ثمْ ينقلنا القرآن إلى نظر من نوع آخر.

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾. (٤٢ - الروم).

وذلك هو النظر فى التاريخ.

ثم تنوع آخر:

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾.
(٢٠ - العنكبوت)

وذلك هو النظر فى التطور وعلم الأجناس.

ثم كيف كانت بداية هذا كله.

﴿خلق كل دابة من ماء﴾ (٤٥ - النور)

﴿والله خلقكم من تراب﴾. (١١ - فاطر)

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾.
(١٢ - المؤمنون)

ذلك هو الأمر كما ورد مجملا فى البداية.

ثم جاء بعد ذلك التفصيل.

﴿من نطفة﴾.

ثم تفصيل أكثر.

﴿نطفة من مَنِيٍّ يُمْنَى﴾. (٣٧ - القيامة)

ثم نرى النطفة تأتى فى أكثر من عشرة مواضع، فنجدها كل مرة تأتى بمشهد تفصيلى مختلف.

فهى ﴿نطفة أمشاج﴾. (٢ - الإنسان)

أى أخلاط من صفات وخصائص متنوعة.

وذلك هو ما نعرفه الآن بالجينات الوراثية.

ثم يأتينا القرآن بتفصيل أكثر بأن النطفة المنوية هى التى تحدد جنس المولود إن كان ذكراً أم أنثى.

﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى﴾
(٤٥، ٤٦ - النجم)

ثم تفصيل ثالث وهو أن هذه النطفة مقدرة بتركيبها هذا من الخالق وليست شيئاً عشوائيًّا من تدبير المصادفة.

﴿من نطفة خلقه فقدره﴾. (١٩ - عبس)

ثم ينقلنا القرآن إلى مشهد مكانى.

﴿ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين﴾. (١٣ - المؤمنون)

تلك النطفة مستقرها الرحم.

ثم ينقلنا إلى مشهد زمانى، فيضع هذه النطفة فى سياقها التاريخى ويربطها ببدئها الأول السحيق من التراب.

﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾
(٥ - الحج).

ثم يعطينا تفاصيل أكثر لما حدث فى هذا السياق التاريخى.. إن النطف كانت فى البداية نطفاً غير جنسية تتكاثر بالانقسام الخضرى بدون تزاوج، ثم تنوعت بعد ذلك إلى ذكر وأنثى وظهر التكاثر التزاوجى.

تأتى هذه الإشارة فى الآية:

﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا﴾.
(١١ - فاطر).

فجعل الأزواج تأتى متأخرة بعد النطف.. مما يدل على أن النطف المقصودة هنا هى نطف أولية لم يتعين فيها ذكر أو أنثى وهو ما يعرف بالتكاثر اللاتزاوجى: ASEXUAL REPRODUCTION.

ثم يعطينا مشهدًا آخر تفصيليًّا عن تسلسل النطفة فى سياقها فى مراحل خلق الجنين:

﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (١٤-المؤمنون)

ثم ينقلنا إلى مشهد غيبى:

﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾. (٧٧ - يس)

وذلك الإشهاد حدث فى الغيب قبل أن نولد:

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾.

(١٧٢ - الأعراف).

هذا موقف إشهاد حدث للنفوس قبل أن تنزل فى الأرحام.

ثم مشهد عتاب ومؤاخذة:

﴿أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا﴾. (٣٧ - الكهف)

بعد كل هذا تكفر بخالقك.

وهكذا تتكرر كلمة النطفة فلا تتكرر أبدًا وإنما تحمل فى كل مرة مشهدًا جديدًا بحيث يتكامل معناها فى الذهن كما يتكامل كائن حى من بذرة تنمو شيئًا فشيئًا إلى نبات كامل.

ثم ينتقل فى مدارج العلم من النطفة نزولا حتى أصغر شىء يصل إليه العلم.. الذرة ومثقال الذرة.. فيلفت النظر إلى أن هناك ما هو أصغر من مثقال الذرة.

﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾. (٣ - سبأ)

ثم يعود فيلفت نظرنا إلى أن كل هذه العلوم التى أشار إليها إنما هى علوم كونية خاصة بالكون الخارجى الموضوعى، وما فيه من نبات وحيوان وإنسان، وجبال وأنهار وأقمار وشموس ونجوم.. ولكنّ هناك نوع آخر من العلم مطلوب منا أن ننظر فيه وذلك هو العلم بالنفس.

﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾. (٢١ - الذاريات)

ثم نوع أكبر من العلم بالنفس هو العلم بالله.

﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾. (١٩ - محمد)

وبطول صفحات القرآن وسوره يعرفنا بهذا الإله.. بوحدانيته وصفاته وأسمائه وأفعاله وذاته.

ثم يتكلم عن علم آخر هو العلم بالغيب.

وغيب الغيب هى ذات الله ولا طاقة لأحد بعلمها.

فالله ﴿ليس كمثله شيء﴾. (١١ - الشورى)

وكذلك العلم بالساعة.

﴿علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو﴾.
(١٨٧ - الأعراف)

لكن هناك غيب آخر هو الملائكة والجن والسموات السبع وسدرة المنتهى، واللوح المحفوظ والعرش، وذلك غيب يطلع الله عليه من ارتضاه من رسله.

﴿لَا يُظهِر على غيبه أحدًا، إلا من ارتضى من رسول﴾.
(٢٦، ٢٧ - الجن)

وهكذا تتكرر كلمة العلم فى القرآن فلا تتكرر وإنما تتفرع وتتنوع، وتفصل مثل شجرة تعطى الجذور والسيقان، والأغصان والأوراق والأزهار والثمار.. فهناك علم بالكون وعلم بالنفس وعلم بالله.. ثم تنفصل هذه العلوم بحدودها وأنواعها فى رحلة الكلمة داخل القرآن.

والعلوم الكونية وحدها لا تصنع من الإنسان عالماً.. فالعلم بظواهر الأشياء ومقاديرها وعلاقاتها هو دائماً علم ناقص.. وأهل الغفلة هم الذين يقتصرون على هذه العلوم الظاهرة.

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾. (٧ - الروم).

وهؤلاء هم الذين «فرحوا بما عندهم من العلم» وكذبوا الرسل وكفروا بالغيب وأنكروا الله فهلكوا.

ولا يكون العلم كاملا إلا إذا أوصلك إلى العلم بنفسك ثم إلى العلم بالله، فذلك هو العلم حقًّا.

بهذه الرحلة لكلمة «العلم» فى القرآن وانتقالها من الإجمال إلى التفصيل، ثم إلى تفصيل التفصيل لا نقع على تكرار أبداً وإنما نجد نمُوًّا عضويا يتكامل فى الذهن عبر السياق القرآنى، كما تنمو البذرة إلى جذر وساق وفروع، وزهر وشجرة كاملة مثمرة.. وكما يفتح المفتاح الواحد على غرف للنوم وقاعات انتظار وقاعات للأكل، وكافتيريا وصالة استقبال ومكاتب للإدارة، فتجتمع للذهن صورة كاملة لفندق.. وذلك ما أسميته بالمعمار القرآنى أو البنيان العضوى أو الترابط الحى، بحيث نجد كل كلمة تكمل الأخرى وتشرحها، وتفصلها دون تكرار ودون زيادة ودون نقصان، وبحيث يصبح القرآن وكأنه جسم مؤلف من خلايا

أو معمار هندسى مبنى من لبنات محسوبة مدروسة، أو كون مترابط متماسك ليس فيه فضول أو لغو أو تكرار أو اختلاف أو تناقض.

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾. (٨٢ - النساء)

وهذا هو القرآن.. حكمه حكم بدن فيه روح.

ولهذا يقول لنبيه عن القرآن.

﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾ (٥٢ - الشورى)

فيسمى القرآن روحًا.. وهذه الخصائص تشهد بالفعل أنه روح.

وذلك هو الكمال المعجز.

وكمثال آخر نجد كلمة «الجنة» تتكرر كثيراً فى القرآن، ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أنها تقدم فى كل مرة مشهداً مختلفاً. فهى مرة جنات وعيون، ومرة جنات ونهر، ومرة جنات من نخيل وأعناب.

وبعد عرض مشاهد الحرير والإستبرق والذهب والفضة والحور العين، والأزواج المطهرة والعسل والخمر، واللبن

والكئوس التى مزاجها الكافور والزنجبيل، والمساكن الطيبة فى جنات عدن والغرف التى من فوقها غرف مبنية.. يفاجئك القرآن بعوالم من الأسرار، فيقول مشيراً إلى الجانب الغيبى من الجنة:

﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾.

﴿١٧ - السجدة﴾

وفى مكان آخر يقول إنهم ﴿فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾. (٥٥ - القمر)

وفى مكان آخر.. ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل﴾.

(٤٣ - الأعراف)

وفى مكان ثالث ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾.

(٨ - التحريم)

وكل هذه أسرار.

ثم هو بعد أن يصف كل المشتهيات فى عالم المادة وعالم الغيب يعود فيقول.. ﴿ولدينا مزيد﴾. (٣٥ - ق)

﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أكبر من هذا كله.

تلك هى رحلة كلمة الجنة فى القرآن.. عالم خلاب من الصور لا تكرار فيه، يخاطب الجوع المادى، ويخاطب الجوع الروحى، ويخاطب الوجدان الفلسفى، ويخاطب عرائس الخيال والأحلام،

ويخاطب طموح الإنسان الذى لا يرضى بشىء فيطمئنه فى النهاية.

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ (٥ - الضحى)

ولقد سبق أن قلنا فى مقالات سابقة أن كلمات القرآن كلمات منفردة بذاتها وبخصائصها، لا تستطيع أن تغير كلمة أو تبدل عبارة أو تقدم جملة، فكل كلمة تمسك بالأخرى مثل الذرات فى مجال مغناطيسى محكم.. حتى الحرف لا يأتى فى القرآن إلا لضرورة، ولا يمكنك أن ترفع حرفاً من مكانه أو تستبدله بحرف آخر.

يقول القرآن عن الصبر على المصيبة:

﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾. (١٧ - لقمان).

ثم نراه يضيف حرف «اللام» للتوكيد حينما يتكلم عن الصبر على أذى الآخرين فيقول.. ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾.

﴿ولمن صبر وغفر، إن ذلك لمن عزم الأمور﴾.

(٤٣ - الشورى)

لماذا أضاف حرف «اللام» فى الآية الثانية.

لأن الصبر على أذى الغريم الذى تستطيع أن ترد عليه بأذى مثله يحتاج منك إلى عزم أكبر.. فالصبر هنا ليس كالصبر على مصيبة لا حيلة لك فيها وبالمثل نرى الله يقول لليهود الماديين:

﴿اتقوا النار﴾. (٢٤- البقرة).

ويقول للمؤمنين أولى الألباب.

﴿اتقونِ يا أولى الألباب﴾. (١٩٧ - البقرة)

لأن العقليات المادية لا تخاف إلا النار المادية. أما أولو الألباب فإنهم يعرفون أن خالق النار أخطر شأناً من النار، ولهذا نراه يضيف الضمير فيقول:

﴿اتقونِ يا أولى الألباب﴾.

وهكذا نرى أن الحروف فى القرآن لا ترد اعتباطاً وإنما تأتى بحساب ولحكمة.

ومثال آخر نرى القرآن يقول:

﴿ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر﴾. (١، ٢ - التكاثر)

فلماذا.. زرتم.. لماذا لم يقل سكنتم المقابر، أو دخلتم المقابر، أو حللتم فى المقابر، أو ملأتم المقابر؟

ولماذا قال ﴿زرتم﴾؟

ليلفت النظر إلى أن المقام فى القبر مقام مؤقت، وأن الدخول إلى القبر دخول زيارة لا دخول سكنى.

تدل على ذلك آية ثانية عن الموت:

﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾. (١٥٤ - آل عمران)

فيصف رقدة الموت بأنها مجرد ضجعة وأن القبر مجرد مضجع... والضجعة بعدها انتباه وقيام.

وتلك دقة بالغة فى التعبير تجعل كل كلمة مقصودة لضرورة ولا يمكن استبدالها.

ثم نرى القرآن يختار الفعل المتعدد المعانى للمناسبة المتعددة المعانى.. فهو يقول عن الأرض.

﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾. (٣٠ - النازعات)

والفعل «دحى» هو الفعل الوحيد فى القاموس العربى الذى يعنى البسط والتكوير معاً، ولا يصلح للتعبير عن حال الأرض إلا هذا الفعل، لأن الأرض منبسطة فى الظاهر مكورة فى الحقيقة ثم إن تكويرها بيضى أشبه بتكوير «الدحية» أو البيضة.
ولا يوجد فى المعجم العربى أى لفظ آخر يعطى هذه المعانى المتعددة، ويستوفى الوصف الظاهر والوصف المستتر للأرض غير هذا اللفظ.. فنحن أمام لفظ ليس له بديل.

وبالمثل نراه يصف الرياح أنها «لواقح».

﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾. (٢٢ - الحجر).

والرياح تلاقح بين السحب الموجبة والسحب السالبة التكهرب، وهى وأيضاً تحمل حبوب اللقاح من أعضاء التذكير إلى أعضاء التأنيث فى الزهر.. ثم هى أيضاً تحمل بخار الماء الذى

ينزل مطراً على الأرض فيلقحها ويخصبها.

ثم هى تحمل ذرات التراب التى تنمو حولها القطيرات وذلك أيضا تلقيح.

فانتقاء اللفظ هنا انتقاء مطلق بحيث لا يصلح فى القاموس لفظ غيره.. فلا يمكن استبداله بحال.

ثم إنك لا تستطيع أن تؤخر أو تقدم كلمة من مكانها فى السياق لأن التأخير والتقديم فى الكلمات القرآنية هو الآخر محسوب، وهو دائماً لوظيفة ولهدف.

فالزانية تأتى قبل الزانى فى الآية:

﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾.
(٢ – النور)

فى حين نرى السارق يأتى قبل السارقة فى الآية.

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾. (٣٨ – المائدة)

ذلك لأن المرأة هى التى تبادر بالخطوة الأولى فى الزنى منذ أن تقف أمام المرآة لتضع المكياج وتلبس العريان.. أما فى السرقة فالرجل هو الأكثر إيجابية.

وبالمثل نجد السمع مقدماً على البصر فى ستة عشر موضعاً. ومعلوم الآن أن جهاز السمع أدق تشريحيًّا من جهاز البصر، وأن السمع أرهف، وأن تنوع النغمات أكثر من تنوع الألوان، وأن

موهبة السمع تصل إلى إمكان الاستماع إلى الوحى من الملائكة.. ولقد علمنا أن موسى سمع ربه ولكنه عجز عن أن يراه، وذلك بسبب محدودية الجهاز البصرى.

وهذا هو القرآن.. بنياناً محكماً من الألفاظ لا تستطيع أن ترفع فيه كلمة أو تبدلها أو تؤخرها أو تقدمها.. تتكرر كلماته بحساب ولحكمة ولهدف، لكى تكشف عن مكنونها وتبوح بأسرارها وثرائها. ثم إن التنوع والتفصيل ينتهى بالقارئ إلى كمال مراد مقصود، وإلى تمام فى الفهم والتصور.

﴿وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلا لامبدل لكلماته﴾. (١١٥ - الأنعام).

فذلك هو التمام المقصود.

ولا يقدر على هذا اللون من تركيب الألفاظ بشر.

وبين الذين يعكفون ويتأملون ويدرسون فى هذا الموضوع.. «موضوع الترابط القرآنى».. مفكر إسلامى جديد هو الأخ محمد العفيفى، اعتزل فى الكويت يتأمل فى أسرار اللفظ القرآنى.. وله ثلاثة كتب فى هذا الباب.. القرآن تفسير الكون والحياة.. مقدمة فى التخلف والتقدم.. والقرآن دعوة حق.. وكلها محاولات جادة لاستجلاء هذا العلم الشريف وكشف دقائقه.. وهى إضافة ثمينة للمكتبة القرآنية.. لا غنى عنها.

النفس والرُّوح

فى اللغة الدارجة نخلط دائماً بين النفس والروح، فنقول إن فلاناً طلعت روحه.. ونقول إن فلاناً روحه تشتهى كذا، أو أن روحه تتعذب، أو أن روحه توسوس له، أو أن روحه زهقت، أو أن روحه اطمأنت، أو أن روحه تاقت واشتاقت أو ضجرت وملت.. وكلها تعبيرات خاطئة، وكلها أحوال تخص النفس وليس الروح.

فالتى تخرج من بدن الميت عند الحشرجة والموت هى نفسه وليس روحه.

يقول الملائكة فى القرآن للمجرمين ساعة الموت:

﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾.

(٩٣ - الأنعام)

والتى تذوق الموت هى النفس وليس الروح.

﴿كل نفس ذائقة الموت﴾. (١٨٥ - آل عمران)

والنفس تذوق الموت ولكن لا تموت.. فتذوقها الموت هو رحلة خروجها من البدن، والنفس موجودة قبل الميلاد، وهى موجودة بطول الحياة، وهى باقية بعد الموت، وعن وجود الأنفس قبل ميلاد أصحابها يقول الله: إنه أخذ الذرية من ظهور الآباء قبل أن تولد وأشهدها على ربوبيته حتى لا يتعلل أحد بأنه كفر لأنه وجد أباه على الكفر.

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾
(١٧٢ - الأعراف)

فذلك مشهد أحضرت فيه الأنفس قبل أن تلابس أجسادها بالميلاد، وليس لأحد عذر بأن يكفر بعلة كفر أبيه، فقد كان لكل نفس مشهد مستقل طالعت فيه الربوبية.. وبهذا استقرت حقيقة الربوبية فى فطرتنا جميعاً.

ثم إن الروح لا توسوس، ولا تشتهى ولا تهوى ولا تضجر ولا تمل ولا تتعذب، ولا تعانى هبوطًا ولا انتكاسًا. إنما تلك كلها من أحوال النفس وليس الروح.

يقول القرآن:

﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله﴾. (٣٠-المائدة)

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه﴾ (١٦ - ق).

﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾. (٧، ٨ - الشمس)

﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾. (١٨ - يوسف)

﴿وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألّا ملجأ من الله إلّا إليه﴾. (١١٨ - التوبة)

﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم﴾. (٥٥ - التوبة).

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾. (١٣٠ - البقرة).

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. (٩ - الحشر)

﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾. (١٢٨ - النساء)

﴿وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء﴾
(٥٣ - يوسف)

فالنفس هى المتهمة فى القرآن بالشح والوسواس والفجور والطبيعة الأمارة، وللنفس فى القرآن ترق وعروج، فهى يمكن أن تتزكى وتتطهر، فتوصف بأنها لوامة وملهمة ومطمئنة وراضية ومرضية.

﴿يأيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى، وادخلى جنتى﴾. (٢٧ - ٣٠ الفجر).

أما الروح فى القرآن فتذكر دائماً بدرجة عالية من التقديس والتنزيه والتشريف، ولا يذكر لها أحوال من عذاب أو هوى أو شهوة، أو شوق، أو تطهر أو تدنس أو رفعة أو هبوط، أو ضجر أو ملل، ولا يذكر أنها تخرج من الجسد أو أنها تذوق الموت.. ولا تنسب إلى الإنسان وإنما تأتى دائماً منسوبة إلى الله.

يقول الله عن مريم:

﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًّا﴾.
(١٧ - مريم)

ويقول عن آدم:

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾.
(٢٩ - الحجر)

يقول ﴿روحى﴾ ولا يقول روح آدم.

فينسب ربنا الروح لنفسه دائماً.

﴿وأيدهم بروح منه﴾ أى من الله. (٢٢ - المجادلة)

ويقول عن القرآن ونزوله على النبى عليه الصلاة والسلام:

﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾

(٥٢ - الشورى)

ويقصد بالروح هنا «الكلم الإلهى القرآنى».

﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾. (١٥ - غافر)

﴿ينزِّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾.

(٢ - النحل)

والروح هنا هى الكلمة الإلهية والأمر الإلهى.

والروح دائمًا تنسب إلى الله، وهى دائماً فى حركة من الله وإلى الله ولا تجرى عليها الأحوال الإنسانية ولا الصفات البشرية.. ولا يمكن أن تكون محلا لشهوة، أو هوى أو شوق أو عذاب.

ولهذا توصف الروح بأوصاف عالية.

فيقول القرآن عن جبريل: إنه روح القدس.. والروح الأمين.

ويقول عن عيسى إنه ﴿رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾. أى روح من الله. (١٧١ - النساء)

أما النفس فهى دائمًا تنسب إلى صاحبها.

﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. (٧٩ - النساء).

﴿من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه﴾. (١٥ - الإسراء)

﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ (١١٨ - التوبة)

وما أبرئ نفسى﴾ (٥٣ - يوسف)

﴿وكذلك سولت لى نفسى﴾. (٩٦ - طه)

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. (٩ - الحشر)

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾. (١٣٠ - البقرة)

وحينما تنسب النفس إلى الله فتلك هى الذات الإلهية.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾. (٢٨ - آل عمران)

ذلك هو الله الذى ليس كمثله شىء وهو مما لا يستطيع الإنسان أن يتخيل له شبيهًا ولا يصح أن نقيس النفس الإلهية على نفوسنا..

فالنفس الإلهية هى غيب الغيب.

يقول عيسى لربه يوم القيامة.

﴿تعلم ما فى نفسى ولاأعلم مافى نفسك﴾. (١١٦ - المائدة).

فالنفس الإلهية لا تتشابه مع النفس الإنسانية إلا فى اللفظ ولكنها شىء آخر البتة..

﴿ليس كمثله شىء﴾. (١١ - الشورى)

﴿لم يكن له كفوًا أحد﴾. (٤ - الإخلاص)

والسؤال إذن:

ما نصيب كل منا من الروح ؟

وماذا نعنى حينما نقول إن لنا روحًا وجسدًا ؟.

ثم ما علاقة نفس كل منا بروحه وجسده ؟

أما نصيبنا من الروح فهو النفخة التى ذكرها القرآن فى قصة خلق آدم.

﴿إنى خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾. (٧١، ٧٢ - ص).

وما حدث من أمر التسوية والتصوير والنفخ فى صورة آدم يعود فيتكرر فى داخل الرحم فى الحياة الجنينية لكل منا.. فيكون لكل منا تسوية وتصوير، ثم نفخة ربانية حينما تتهيأ الأنسجة ويستعد المحل لتلقى هذه النفخة، وذلك يكون فى الشهر الثالث

من الحياة الجنينية - وينتقل الخلق بهذه النفخة من حال إلى حال..

يقول ربنا عن هذه المراحل:

﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. (١٤ - المؤمنون)

فيقول عند النفخة: ﴿ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.. إشارة إلى نقلة هائلة نقل بها المضغة المكسوة بالعظام إلى مستوى لا يبلغه ولا يقدر عليه إلا أحسن الخالقين.. وذلك بالنفخة الربانية.

ويتكلم عن هذا النفخ فى الجنين بعد تسويته فى آية أخرى عن نسل آدم.

﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾
(٨، ٩ - السجدة)

ونفهم من هذا أن السمع والبصر والفؤاد هى من ثمار هذه النفخة الروحية.. وإنه بهذه المواهب ينقل الإنسان من نشأة إلى نشأة ومن مستوى إلى مستوى، وهذا هو معنى.. ﴿ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

إن نصيبنا من الروح إذن هو نصيبنا من هذه النفخة.. وكل منا يأخذ من هذه النفخة على قدر استعداده.

وبفضل هذه النفخة يصبح للواحد منا خيال وضمير وقيم وعالم من المثل.. والجسد والروح فينا أشبه بأرض الواقع وسماء المثال.

وعلاقة نفس كل منا بروحه وجسده هى أشبه بعلاقة ذرة الحديد بالمجال المغناطيسى ذى القطبين.

والذى يحدث للنفس دائمًا هو حالة استقطاب، إما انجذاب وهبوط إلى الجسد، إلى حمأة الواقع وطين الغرائز والشهوات، وهذا هو ما يحدث للنفس الجسدانية الحيوانية، حينما تشاكل الطين وتجانس التراب فى كثافتها، وإما انجذاب وصعود إلى الروح إلى سموات المثال والقيم والأخلاق الربانية، وهو ما يحدث للنفس حينما تشاكل الروح وتجانسها فى لطفها وشفافيتها.. والنفس طوال الحياة فى حركة وتذبذب واستقطاب بين القطب الروحى وبين القطب الجسدى.. مرة تطغى عليها ناريتها وطينتها، ومرة تغلبها شفافيتها وطهارتها.

والجسد والروح هما مجال الامتحان والابتلاء، فتبتلى النفس وتمتحن بهاتين القوتين الجاذبتين إلى أسفل وإلى أعلى لتخرج سرها، وتفصح عن حقيقتها ورتبتها وليظهر خيرها وشرها.

ومن هنـا نفهم أن حقيقة الإنسـان هى « نفسـه »، والـذى يـولـد ويبعث ويحاسب هو نفسه، والذى يمتحن ويبتلى هو نفسـه، وما يجـرى عليه من الأحوال والأحزان والأشواق هى نفسه.. أما جسده وروحه فهما مجرد مجال تمامًـا مثل الأرض والسمـوات فى كونهما مجـال حركـة بالنسبة للإنسان لإظهار مواهبه وملكاته.. فكما أعطى الله لهذه النفس عضلات (جسدًا) كذلك أعـطاها روحًـا لتحيا، وتعمـل وتكشف عن سرها ومكنونها وتباشر خيرها وشرها.

وبهذا المعنى تكون كلمة «تحضير الأرواح» كلمة خاطئة، فالأرواح لا تستحضر، ولا يمكن لأى روح أن تستحضر، لأن الروح نور منسوب إلى الله وحده، وهو ينفخ فينا هذا النور لنستنير به.. وهذا النور من الله وإلى الله يعود ولا يمكن حشره أو استحضاره.. أما ما يحشر ويستحضر فهى الأنفس وليس الأرواح.. هذا إذا صح أن هؤلاء الناس يستحضرون أنفسًا فى جلساتهم.. وأغلب الظن أن ما يحضر يكون من الجن المصاحب لهذه الأنفس فى حياتها (القرناء)، وكل منا له فى حياته قرين من الجن يصاحبه، وهو بحكم هذه الصحبة الطويلة يعرف أسراره ويستطيع أن يقلد صوته وإمضاءه، وهذا الجن هو الذى يلابس الوسيط فى غرفة التحضير المظلمة، ويدهش الموجودين بما يحسبونه خوارق.

أما الأرواح فلا يمكن استحضارها.

أما الأنفس فلا يحشرها ولا يحضرها إلا ربها.

والنفس لا يمكن أن تتحول إلى روح، وإنما هى فى أحسن أحوالها ترتقى حتى تشاكل الروح وتجانسها بقدر ما تتخلق بالأخلاق الربانية، وبقدر ما تقترب من المثال النورانى (الروح التى نفخها الله فى الإنسان).

كذلك يمكن لهذه النفس أن تتدنى وتهبط حتى تشاكل الشياطين، وتجانس إبليس فى ناريته.

والنفس التى تتطهر وتتزكى حتى تشاكل وتجانس الروح فى لطفها هى التى يقربها الله من عرشه يوم القيامة، وهى التى يقول عنها إنها ستكون ﴿فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾.
(٥٥ - القمر)

.. لأنها بهذا التطهر والترقى تصبح نفسًا ربانية مكانها إلى جوار الله.

أما النفوس المظلمة التى تهبط بفجورها وغلظتها إلى الدرك الشيطانى فهم الذين يقول عنهم ربهم يوم القيامة.

﴿إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (١٥ - المطففين)

وهؤلاء سيكون مكانهم مع النفوس النارية السفلية فى قاع

الظلمة والجحيم. أما الروح فلا مكان لها فى جنة أو جحيم، وإنما هى نور من نور الله تنسب إليه، وهى منه ولا يجرى عليها ابتلاء ولا محاسبة ولا معاقبة ولا مكافأة.. وإنما هى المثل الأعلى فى الآية.

﴿ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾.

(٦٠ - النحل)

﴿وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾. (٢٧ - الروم)

وذلك عالم المثال النورانى الذى يستمد قدسيته ونورانيته من كونه من الله ومن أمر الله.

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾. (٨٥ - الإسراء)

لماذا خلقنا الله ؟

فى كل لحظة منذ ميلاد الإنسان حتى موته.. منذ يقظته فى أول ساعات الصباح حتى دخوله فى الفراش لينام.. وهو يتعرض لامتحان تلو امتحان.

كل لحظة تطرح على الإنسان موقفًا وتتطلب منه اختيارًا بين بديلات.

وهو فى كل اختيار يكشف عن نوعية نفسه وعن مرتبته ومنزلته دون أن يدرى.

شهوته تناديه ليشبعها.

قد تكون شهوة إلى طعام، أو شهوة إلى امرأة، أو شهوة إلى سلطة، أو شهوة إلى جاه.

وإشباع أى شهوة يستدعى تأجيل الأخرى، وتكشف النفس عن منزلتها بما تفضله، وبما تعجل إليه من شهوات من أدنى السلم حيث الإنسان هو الحيوان الذى لا يشغله سوى شهوة بطنه أو عضوه التناسلى، إلى الطاغية الجبار الذى لا شاغل له سوى شهوة التسلط على الآخرين وسحقهم واستغلالهم.. يكشف لك اختيارك عن نوعك ومنزلتك ورتبتك.

ويقول لك سلوكك.. من أنت.. بين هؤلاء الشهوانيين.. وأى نوع من الحيوان أنت.. فإذا رفضت هذه الشهوات جميعها واستجبت لنداء المنطق والاعتدال.. فأنت من أهل النظر والعقل وأنت إنسان ولست حيوانًا.

ولكن الإنسانية أيضًا درجات والعقل درجات.

وأدنى درجات العقل هو العقل المادى البحت الذى لا يعترف إلا بالواقع المحدود الذى يراه ويعيشه، وينكر تمامًا ما وراء هذا الواقع الملموس المحسوس.

ويكاد يكون هذا العقل عضوًا ملحقًا بالحيوان الذى حكينا عنه يعمل فى خدمة شهواته، وذلك بالتماس المبررات واصطناع المنطق والذرائع لاقتناص اللذات.

فإن احتكمت فى سلوكك لهذا العقل فأنت مجرد حيوان متطور تستخدم طلقة المسدس بدلا من المخالب، وتتآمر بالعقول

الألكترونية بدلا من الانطلاق وراء غضب عشوائى غير محسوب.

ولكن النتيجة ما زالت واحدة.. إنك مجرم.. وحياتك هى مخطط إجرامى.. مهما بدت فى ظاهرها مهذبة معقولة ومنطقية.

ألم يقتل ستالين خمسة ملايين فلاح.. ألم يفعل ذلك بحجة منطقية أنه إنما يقتل الرجعية، ويدفع بعجلة التاريخ إلى الأمام.. وأنه إنما يقتل الفلاح لنصرة الفلاح.

تلك إذن هى أدنى درجات العقل وأخس منزلة من منازل العقلاء.

فإذا ارتقيت درجة فأنت تستشعر بشىء وراء الواقع.

ولكن هذا الاستشعار لا يزيد عن شبهة وظن.

ولكن هذه الشبهة وهذا الظن يؤديان بك إلى أن تكون أقل مادية، وأقل ظلمًا وأقل صلفًا وأقل غرورًا، وأقل اقتناعًا بالمنطق المقفل وبالواقع الغليظ المحدود.

وبين حين وآخر سوف تظهر عليك بدوات وسوانح تضحية وكرم.

وسوف تعطيك لمسة الغيب بعض المواقف الشاعرية.

وسوف تتأرجح بين هذه المنازل على حسب ما فى نفسك من خير.. وما فى عقلك من نور.

فإذا ارتقيت أكثر فإن الاستشعار الروحى للغيب والإحساس الصوفى لما وراء الواقع سوف يغلبان على عقلك المسجون فى زنزانة الماديات، وسوف تنفتح لك نوافذ من البصيرة والحكمة تضىء الظلمة التى ترين عليك من غواشى الحس، وسوف يبـدو كرم الخلق كأنه طبعك.

ولكن استشعار الغيب لم يرتفع بعد ليصبح يقينًا.. وإنما هو مجرد ترجيح.

فإذا حدثك أحد عن وجود الله فأنت تميل إلى تصديقه.. ولكن ليس لدرجة أن تصلى وتصوم وتدين بالعبادة.

وغاية ما تبلغ إليه من حال.. أن تعتقد أن هناك قوة ما وراء الأشياء.. وأنك تخشى هذه القوة.

ولكن ما عدا ذلك غير واضح، واهتمامك بالدنيا يغطى على هذا الإحساس.. وأنت تمضى فى حياتك تحاول أن تحقق أقصى النفع ولكنك تتحرى ألا تؤذى أحدًا.

فإن ارتقيت أكثر فإن الاستشعار الروحى يتضح أكثر وغواشى الحس تنحسر عنك أكثر وأكثر، ويخالجك اليقين بأنك لست وحدك.. وبأنك لم تكن قط وحدك.. وإنما كان الله دائماً معك وأنت تسمى هذه القوة لأول مرة باسمها الدينى.. الله.. وتصفها بما وصفتها به الكتب السماوية من أسماء حسنى.. وتسند إليها

العناية والخلق والوحى.

وتتفاوت المراقى فى هذه الرتبة الشريفة من المؤمن العادى الذى يصلى ويصوم ويتحرى الخير، ولكن نفسه تغالبه إلى السقوط فى الدنيا بين حين وآخر.. إلى المؤمن صاحب الإيمان الرفيع الذى يعيش فى شهود وحضور وامتثال للذات الإلهية على الدوام فيعبد الله كأنه يراه.

ومنزلتك فى كل درجة من هذه الحالات يشهد عليها سلوكك.. فإذا كنت من أهل هذا الإيمان الرفيع فلابد أن تكون من أهل الإحسان.. تتقن كل عمل يوكل إليك دون نظر إلى مكافأة.. وتعامل أعداءك بالتسامح والنصح، وتجاهد الباطل بيدك وقلبك ولسانك ولا تخشى فى الحق لومة لائم، وتزجر شهواتك وهى ما زالت همسًا فى الخاطر وقبل أن تنمو إلى دوافع وأعمال.

ولا حقيقة لحال إلا إذا شهد عليه عمل، ولهذا يقلبك الله بين المواقف بين لحظة وأخرى من لحظة تصحو إلى لحظة تنام، وكل لحظة تضعك فى موقف.

وكل موقف يتطلب منك اختيارًا بين بديلات، ولا يعفيك من الامتحان ألا تختار.. لأن عدم الاختيار هو فى ذاته نوع من الاختيار.. ومعناه أنك ارتضيت لنفسك ما اختارته لك الظروف أو ما اختاره أبوك، أو ما اختارته شلة أصحابك الذين أسلمت نفسك لهم.

ويعنى هذا أن الحياة تعريك فى كل لحظة، وتكشف حقيقتك وتنزع عنك قشرتك لتخرج مكنونك ومكتومك.

والمكر الإلهى هنا هو أن يضعك فى موقف بعد موقف، ومشكلة بعد مشكلة.. وكل مشكلة تتطلب حلا.. وكل حل يتطلب اختيارًا.. وكل اختيار يكشف عن حقيقتك رغمًا عنك مهما حاولت الاستخفاء.

وبقدر ما تمتد حياتك يومًا بعد يوم.. بقدر ما تتمزق عن وجهك الأقنعة.. ويظهر ويفتضح أمرك وينتهك سرك.

والله يعلم حقيقتك وسرك من البداية.. ولكنك أنت لا تعلم ولا تريد أن تعلم.. لأنك مدع.. وكل منا مدع..

كل منا يتصور أنه رجل طيب وأنه مستحق لكل خير، حتى الجبارون الذين شنقوا وسجنوا، وعذبوا شعوبهم تصوروا أنهم مصلحون.

كل منا جاء إلى الحياة ومعه دعوى عريضة مزعومة بأنه رجل صالح وطيب.

ولهذا اقتضى عدل الله أن يطلعنا على حقائقنا، حتى لا تقوم أعذار حينما يبدأ تصنيف الناس فى الآخرة حسب درجاتهم.. وحتى يكون التصنيف على حسب الحقائق، وليس على حسب المزاعم والدعاوى.

ولهذا خلق الله الدنيا.

خلقها لتنكشف الحقائق على ما هى عليه.. ويعرف كل واحد نفسه ويعرف مقدار خيره وشره.. ثم ليعرف الأبرار خالقهم وربهم، وليذوقوا رحمته قبل لقائه.

ثم خلق الآخرة لتنكشف فيها حقائق الربوبية، وعالم الملكوت والجبروت والغيب.

والله لا يخلق أى شىء إلا بالحق وللحق، لأنه سبحانه هو الحق.

﴿وما خلقنا السموٰات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾. (٨٥ - الحجر).

﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾. (٣٨ - الدخان).

﴿ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. (٣٩ - الدخان).

﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾. (٥ - يونس).

﴿خلق السمٰوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون﴾. (٣ - النحل).

﴿ما خلق الله السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾. (٨ - الروم)

﴿وخلق الله السمٰوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾. (٢٢ - الجاثية)

﴿خلق السمٰوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم﴾. (٣ - التغابن).

﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾. (٢ - الملك)

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك﴾.
(١٩١ - آل عمران)

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾.
(١١٥ - المؤمنون)

لاعبثية ولا عبث...

وما نرى حولنا من تداول الأحوال على الناس من فقر إلى غنى، إلى مرض إلى عز إلى ذل، إلى حوادث مفاجئة إلى مصائب إلى كوارث إلى نجاح إلى فشل، ليست أموراً عبثية ولا مصادفات عشوائية، إنما هى ملابسات محكمة من تدبير المدبر الحكيم الذى يريد أن يفض مكنون النفوس ويخرج مكتومها.

﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾. (٧٢ - البقرة)

إننا جميعًا شجعان حتى يدعو داعى الحرب، فيبدى كل واحد

عذرًا ويختلق كل واحد ظروفًا تمنعه ولا يثبت ساعة الضرب إلا القليل.

ولولا محنة القتال ما انكشفت النفوس على حقيقتها، ونحن جميعًا كرماء حتى يدعو داعى البذل، فتنكمش الأيدى التى كانت ممدودة بدعوى السخاء، ولا تنبسط بالكرم إلا أكف معدودة.

وكما قال المتنبى:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتّال

فالمشقة هى التى كشفت النفوس وفضحت دعاويها، ومن هنا جاءت ضرورتها.

وما كنا لنعرف صلابة الصلب لولا اختباره.

ولهذا خلق الله الدنيا ليعرف الضعيف ضعفه، وليعرف القوى قوته، ولتفتضح الدعاوى الكاذبة، ويتم العدل باقتناع كل نفس باستحقاقها، وبعدالة مصيرها النهائى فى أعلى عليين أو أسفل سافلين.

خلق الله الدنيا ليحق الحق ويبطل الباطل.

ويصدق أيضاً الكلام الذى يقول.. إن الله خلقنا ليعطينا.. فهو كلام يؤدى بنا إلى نفس المعنى.

فهل يصح عطاء إلا بمعرفة الاستحقاقات أولا ليكون العطاء حقًا.

إن معرفتنا لأنفسنا أيضاً مطلوبة، لتكون قناعة كل واحد بعطائه قناعة حقيقية.. ولينتفى الاعتراض.

فمعرفة النفوس لحقائقها.. ومعرفة الإنسان لخالقه.. هى الحكمة من خلق الدنيا.

﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾.
(٢ - الملك)

وما كانت هذه المعرفة لتتم إلا بالدم والدموع، لأن النفوس ما كانت لتبوح بأسرارها وحقائقها إلا بالدم والدموع.

ولأن كلا منا يخفى حقيقته وراء أقنعة غليظة من الشعارات والأكاذيب، ويسدل على وجهه حجابًا من الافتعال والتمثيل وبسمات النفاق والملاطفة والمجاملة.

فكان لا بد من حادث عنيف ليخترق هذه الحجب.

والدنيا كانت ذلك الحادث.

لقد أخرجنا الله من العدم وكان كل مناحقيقة مكنونة، وأعطى كلًّا منا اليد والقدم ليضر وينفع.

فأما الذين تحروا النفع والبر والخير فهم أهله.. ومأواهم إلى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما أهل الضرر والأذى والظلم فهم المبعدون عنه وعن

رحمته.. والبعد عن الله نار.. لأن كل ماسوى الله نار..

وعلامة أهل الله هى عرفانهم لربهم من قبل لقائه.. أن يعرفوه فى هذه الدنيا.. وأن يشهدوا الدنيا دالة عليه.

وكلام القرآن بأن الله خلقنا لنعبده هو كلام يشتمل على كل هذه المعانى السالفة فى باطنه.

وحينما تقول الآيات.

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

(٥٦ - الذاريات)

فإنها تعنى بداهة.

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفون).

لأنه لا عبادة بلا معرفة.

والمعنى أنه خلقنا لنعرفه، فإذا عرفناه عبدناه.. وإذا عبدناه تفاضلت عباداتنا، وتفاضل إيماننا وإنكارنا، وتفاضلت منازلنا.. وبالتالى تفاضلت استحقاقاتنا حسب ما نتعرض له من امتحانات فى الدنيا.. وبالتالى تفاضل العطاء من المعطى.

وعطاء الله مبذول للكل.

﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا﴾. (٢٠ - الإسراء)

فالله خلق ليعطى.. وكلنا مستحقون للعطاء بحكم رتبة العبودية، وكل هذه المعانى باطنة فى كلمة «ليعبدون».

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

(٥٦ - الذاريات)

أما الذى يقول: إن الله خلقنا لأنه خالق ولابد للخالق أن يخلق، فقد أوجب على الله أن يخلق هذا أو يخلق ذاك..

ولاحق لأحد أن يوجب على الله شيئًا.

ولا يوجد قانون يوجب على الله شيئًا.

لأنه لا توجد سلطة أو حكم خارج عن الله أصلًا، وإنما الله يخلق ما يشاء.

ومشيئة الله لا تحدها قوانين.. لأنه سبحانه مصدر جميع القوانين.

والمشيئة مردودة إلى الله، وبالتالى ليست مسببة بحيث يمكن أن نسأل: ولماذا خلق الله هذا ولم يخلق ذاك؟

إن «لماذا» هنا لا مكان لها بتاتًا ولا يصح أن توجه إليه سبحانه ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾.

(٢٣ - الأنبياء)

وكنه المراد لا يعلمه أحد.

والسؤال يقال بوجه إجمال.

ومجال التأمل هو فى الحكمة العامة للخلق وللدنيا.

أما السؤال تفصيلاً عن خلق هذا وخلق ذاك، فهو أمر غيبى.. وهو فى العمى لا يعلمه أحد.

يقول الصوفى ابن عربى: إن الله خلق هذا وخلق ذاك لأنهما سألاه فى العدم أن يرحمهما بإيجادهما فأوجدهما.. وأن الله لا يأتى بأحد إلى الدنيا كرهًا.. وإنما كل ما جاء إلى الدنيا جاء بطلبه.

وهو كلام غيبى.

وهو كلام يستتبع أنه كان لنا وجود فى العدم.. وأن العدم غير معدوم.

وهو كلام يجرنا مرة أخرى إلى المعضلة التى أثرتها فى كتابى «الوجود والعدم».

ولمن يريد أن يغوص وراء الأسرار أكثر أن يعود إلى الكتاب.

وحسب المؤمن الذى يريد أن يقف عند بر الأمان، ولا يلقى بنفسه فى وادى العماء.. أن يقول:

آمنت بكلمات الله على مراد الله.

وما خفى عنى فالله به أعلم.

الصُّوفى والبحْر

مد الرجل ساقيه فى استرخاء لذيذ، ونظر إلى البحر المديد الأزرق كأنه يشربه ويشرب لونه. وترك روحه ترضع من هذه الشفافية اللؤلؤية والأنوار المتشععة الذائبة فى المياه.

شىء ما فى ذلك البحر كان يبدو لعينيه، وكأنه من وراء العقل ومن وراء الحس.. شىء كالغيب، يسطع خلال المظاهر.

وتذكر كلمات ذلك الصوفى الذى قال إنه اشتاق إلى ربه، وإنه احترق إليه شوقًا، وكاد عقله يهلك عجزًا عن بلوغه لولا أن نور الله كان يلوح له من وراء أستار الغيب، ومن خلال الجمال المتجلى فى الوجود فيروى ظمأه بين الحين والحين.

وذلك هو الشرب والسكر الذى يحكى عنه الصوفية.

شرب الجمال المتجلى فى الوجود.

ذلك الشرب المغيب الذى يترك الروح نشوانة هيمانة تهتف.. الله.. الله.

وقد أدرك صاحبنا فى جلسته أمام البحر لأول مرة ذلك المعنى البعيد الذى حكى عنه الصوفية.. وشعر بذلك الشرب المغيب.. وهتفت روحه النشوانة، وقد أدركت طرفًا من تلك الحضرة الإلهية المتجلية فى الأشياء.. هتفت هيمانة سكرانة.. الله.

لقد اتصلت روحه لأول مرة بنبع الحسن، ومصدر الفتنة وسر الجلال والجمال فى الأشياء.. وباشر تلك الرجفة الكهربائية وأحس بتلك الرعشة الروحية وهو يلامس السر السارى فى الوجود وفى نفسه.

وذلك هو حضور المحبوبة المعشوقة التى كان يسأل عنها المحب الهيمان طول الوقت، ويبحث عنها ويرتحل إليها وهى طول الوقت معه دون أن يدرى.. فى سواد عينيه.. وفى حنايا ضلوعه.. وأقرب إليه من حبل الوريد.

ومن عجب أنى أحن إليهمـو
وأسأل عنهم من أرى وهمو معى
وترصدهم عينى وهم فى سوادها

ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

فما كان الحسن والجمال والفتنة التى لمح طرفًا منها فى الشفاه والخدود والقدود إلا مددًا من ذلك الغيب المغيب، ولا كان إلا تجليًا لذات الحسن المتفردة.. «الذات الإلهية» التى هى أقرب إليه من نفسه، وأقرب إلى عينيه من سوادهما، وأقـرب إلى لسانـه من نطقه.

إن ليلاه فيه.. وهو يقطع البوادى بحثًا عنها.

«وذات الحسن المتفرد» التى أفاضت من حسنها البديع على كل شىء.. أقرب إليه من حبل وريده، وأوثق اتصالاً به من دمه فى شرايينه.

وحينما يدرك الصوفى ذلك يصيبه برد السلام، ويهدأ فى جوانحه طائر القلب، وتنشر عليه السكينة لواءها، ويصبح صاحب الوجه النورانى، والنفس المطمئنة الذى لا تزلزله الزلازل ولا تحركه النوازل.

شعر صاحبنا بتلك الأنوار وهو جالس أمام البحر، وأمامه قطف من عنب مثلج.. ورأى كل حبة عنب وكأنها تختزن داخلها نورًا.. وحينما ذابت فى فمه بردًا وحلاوة شعر كأنما تعطيه سرها وتبوح له بمكنونها.. وكان فى تذوقه لحلاوتها شيئاً كالعبادة.. وكأنما كان ربه هو الذى يطعمه ويسقيه مباشرة، وبدون وساطة ويناوله

من كفه الرحمانية ليأكل ويشرب..

وتذكر قول عميد العشاق الإلهيين ابن الفارض:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فوصف الشاعر خمرًا للكرم من قبل أن يخلق الكرم. وتلك هى خمر السر المودع فى الأشياء من قبل أن تخلق الأشياء.

تلك هى خمر «فإذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين».. خمر الأنوار المودعة فى الأشياء.

وكل مؤمن ما زال يعاود السجود مثل الملائكة كلما استشعر هذه الأنوار.. وكلما باشر سرها وذاق حلاوتها سجدت جوارحه وهتفت نفسه.. الله.. الله.

وشوش له البحر بهذه الكلمات، وكاشفه بتلك الأسرار وهو يهدهده بأمواجه، ويتناثر كحبات الماس على وجهه وساقيه.

وبقدر ما كانت صفحة البحر تبدو له هادئة ساكنة مطمئنة.. كان باطن البحر يقول له.. باطنى وسع العالمين.. وسع الحياة والموت.. وسع كل شىء علماً.

كان البحر أشبه بالرمز المهموس، والإشارة الدالة والمثل المضروب على القدرة.

﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرِّىّ يُوقَد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار﴾. (٣٥ - النور).

ذلك هو الضوء فى المصباح، واللؤلؤة فى الصدفة، والروح فى الإنسان، والجمال فى البحر، وتلك هى النفخة التى تدل على النافخ ﴿يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار﴾.

فالزيت يسرى فيها من الذات المباركة التى تضىء بذاتها بدون حاجة إلى نار تشعلها.. الذات التى نورها مصدر كل الأنوار.

وتلك هى الشجرة المباركة المنزهة عن الجهات.. فلا هى شرقية ولا هى غربية.. فهى فوق المكان والزمان ومنزهة عن الأسباب، فهى تضىء بلا نار.. تلك هى الذات الإلهية المتعالية على الصور.. ومع ذلك تتجلى فى كل الصور.

﴿هو الظاهر والباطن﴾.

ظاهر فى البحر والشمس والنجوم وفى وجوه الحسان ولكنه غيرها جميعًا.

هو الظاهر سبحانه ولكنه ليس المظاهر.

وتلك هى الفتنة التى يقع فيها المؤمن والكافر.

تقول له المظاهر الجميلة وهى تدعوه إلى نفسها بجمالها.

﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾

فإذا افتتن بها ووقع فى أسر جمالها وعبدها وقع فى الشرك الخفى وهلك.

وذلك هو حال الأغلبية والكثرة من عشاق المظاهر وعباد المال والجاه والنساء.

وإذا أدرك أن فتنتها ليست منها ولكن من الله المتجلى فيها.. وأنها كالمصابيح فى زجاجات، ولكنها مصابيح لا تضىء بذاتها، وإنما بمدد وأسلاك من شجرة مباركة هى التى تأتى منها الإنارة لكل المصابيح.. إذا أدرك ذلك تجاوز بعبادته كل المظاهر وكل المصابيح المنيرة، وتوجه إلى الله الذى ينيرها كلها بنوره.. وخرج من زحام الكثرة إلى صفاء الوحدة.. واختص الله وحده دوناً عنها بالعبادة.. وإذا فعل ذلك نجا. وذلك حال القلة من العارفين.

وهذا سر الدنيا.. ولهذا خلقها الله.. لتمتحن بإغرائها معادن النفوس، ويتميز بها العارف من الجاهل.. وتتميز بها المراتب والمنازل والدرجات.. ويعرف بها أهل الصدق صدقهم، وأهل الكذب كذبهم حينما تنشر الأعمال، وتهتك الأسرار فى يوم الحشر ويوم التغابن الذى لا ينفع فيه ادعاء الأدعياء.. يوم يشعر كل

إنسان أنه غبن نفسه حينما تعجل لذة تافهة وزائلة لا تساوى شيئًا وحرم نفسه من ميراث جنة لا تنفد لذائذها.

ووشوش له البحر.. وهمس الموج.

وتناثر كالماس على وجهه وقدميه.

واتصل السر بالسر.

ومضى الحوار.

مَن أنتَ ؟

من أنت.. حينما تتردد لحظة بين الخير والشر.. من تكون..؟!
أتكون الإنسان الخير أم الشرير أم مابينهما..؟!

أم تكون مجرد احتمال للفعل الذى لم يحدث بعد..؟!

إن النفس لا تظهر منزلتها ولا تبدو حقيقتها إلا لحظة أن تستقر على اختيار، وتمضى فيه باقتناع وعمد وإصرار، وتتمادى فيه وتخلد إليه وتستريح وتجد ذاتها.

ولهذا لا تؤخذ على الإنسان أفعال الطفولة، أو أفعال المراهقة ولا ما يفعله الإنسان عن مرض أو عن جنون أو عن إكراه... وإنما تبدأ النفس تكون محل محاسبة منذ رشدها، لأن بلوغ

الرشد يبدأ معه ظهور المرتكزات والمحاور التى ستنمو عليها الشخصية الثابتة.

واختيارات الإنسان فى خواتيم حياته هى أكثر ما يدل عليه، لأنه مع بلوغ الإنسان مرحلة الخواتيم يكون قد تم ترشح وتبلور جميع عناصر شخصيته؛ وتكون قد انتهت ذبذبتها إلى استقرار، وتكون بوصلة الإرادة قد أشارت إلى الطابع السائد لهذه الشخصية.

ولهذا يقول الصوفيون.. العبرة بالخواتيم.. وما يموت عليه العبد من أحوال، وأعمال وما يشغله فى أيامه الأخيرة هو ما سوف يبعث عليه.. تماماً كما ينام النائم فيحلم بما استقر فى باله من شواغل لحظة أن رقد لينام.

ولهذا أيضاً لا تؤخذ النفس بما فعلته وندمت عليه ورجعت عنه، ولا تؤخذ بما تورطت فيه ثم أنكرته واستنكرته، فإن الرجوع عن الفعل ينفى عن الفعل أصالته وجوهريته ويدرجه مع العوارض العارضة التى لا ثبات لها.

وقد أعطى الله الإنسان مساحة كبيرة هائلة من المنازل والمراتب.. يختار منها علوًا وسفلا مايشاء... أعطاه معراجًا عجيبًا يتحرك فيه صاعدًا هابطًا بلا حدود.. ففى الطرف الصاعد من هذا المعراج تلطف وترق الطبائع، وتصفو المشارب والأخلاق حتى

تضاهى الأخلاق الإلهية فى طرفها الأعلى (وذلك هو الجانب الروحى من تكوينه) وفى الطرف الهابط تكثف وتغلظ الرغبات والشهوات، وتتدنى الغرائز حتى تضاهى الحيوان فى بهيميته، ثم الجماد (فى جموده وآليته وقصوره الذاتى).. ثم الشيطان (فى ظلمته وسلبيته) وذلك هو الجانب الجسدى الطينى من التكوين الإنسانى.

وبين معراج الروح صعودًا ومنازل الجسد والطين هبوطًا، تتذبذب النفس منذ ولادتها، فتتسامى هنا وتتردى هناك بين أفعال السمو وأفعال الانحطاط، ثم تستقر على شاكلتها وحقيقتها.

﴿قل كُلٌّ يعمل على شاكلته﴾. (٨٤ - الإسراء)

ومتى يبلغ الإنسان هذه المشاكلة والمضاهاة بين حقيقته وفعله فإنه يستقر ويتمادى، ويمضى فى اقتناع وإصرار على خيره أو شره حتى يبلغ نهاية أجله.

ومعنى هذا أن النفس الإنسانية أو «الأنا».. هى شىء غير الجسد.. وهى ليست شيئًا معلومًا بل هى سر وحقيقة مكنونة لايجلوها إلا الابتلاء، والاختبار بالمغريات.

وما الجسد والروح إلا الكون الفسيح الذى تتحرك فيه تلك النفس علوًّا، وهبوطًا بحثًا عن المنزلة التى تشاكلها وتضاهيها والبرج الذى يناسب سكناها فتسكنه.. فمنا من يسكن برج النار (الشهوات) وهو ما زال فى الدنيا، فلا يبرح هذا البرج حتى

الممات، فتلك هى النفس التى تشاكل النار فى سرها وهى التى سبق عليها القول والعلم بأنها من أهل النار.

وذلك علم سابق عن النفوس لا يتاح إلا لله وحده، لأنه وحده الذى يعلم السر وأخفى، فهو بحكم علمه التام المحيط يعلم أن هذه الحقيقة المكنونة فى الغيب التى اسمها فلان، والتى ما زالت سرًّا مستترًا لم يكشفه الابتلاء والاختبار بعد، والتى لم تولد بعد ولم تنزل فى الأرحام.. يعلم ربنا تبارك وتعالى بعلمه المحكم المحيط أن تلك النفس لن تقر ولن تستريح ولن تختار إلا كل ما هو نارى شهوانى سلبى عدمى.. يعلم عنها ذلك وهى ما زالت حقيقة مكنونة لا حيلة لها فى العدم.

وهذا العلم الربانى ليس علم إلزام ولا علم قهر، بل هو علم حصر وإحاطة، فالله بهذا العلم لا يجبر نفسًا على شر، ولا ينهى نفساً عن خير، فهو يعلم حقائق هذه الأنفس على ماهى عليه دون تدخل.

فإذا جاء ميقات الخلق (وجميع هذه الأنفس تطلب من الله أن يخلقها ويرحمها بإيجادها وهى مازالت حقائق سالبة فى العدم) أعطى الله تلك النفس اليد، والقدم واللسان لتضر وتنفع، وأعطاها ذلك الكون الفسيح الذى اسمه الروح والجسد لتمرح فيه صاعدة هابطة تختار من منازله ما يشاكلها لتسكن فيه.. فإذا

سكنت واستقرت، وتسجلت أعمالها قبضها الله إليه إلى يوم البعث والحساب المعلوم.. حيث تقرأ كل نفس كتابها، وتعلم منزلتها فلا يعود لأحد العذر فى أن يحتج بعد ذلك حينما يضعه الله فى مستقر الجنة أو مستقر النار الأبدية.

وقد أعذر الله وأنذر الجميع، من قبل ذلك بالرسل والكتب والآيات، وأقام عليهم الحجة بما وهب لهم من عقل وضمير وبصيرة، وحواس تميز الضار من النافع والخبيث من الطيب.

ولهذا حينما تطالب النفوس المجرمة فى النار أن تعطى فرصة أخرى، وأن ترد إلى الدنيا لتعمل الصالحات، وحينما يدعى البعض أن تعذيب تلك النفوس أبديًّا على ذنوب مؤقتة ارتكبتها فى الزمن المحدود هو أمر ظالم.

حينئذ يجيب ربنا متحدثًا عن هؤلاء المجرمين قائلا:

﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

(٢٨ - الأنعام)

وفى هذا الرد البليغ إشارة إلى أن إجرام تلك الأنفس لم يكن ذنبًا موقوتًا فى الزمن.. بل إنهم ليعاودون هذا الجرم فى كل زمن ومهما عاود الله خلقهم.. لأن ذلك الإجرام حقيقة مكنونة، وليس عرضًا محدودًا بالزمان والمكان.. ولهذا كان عقابه الأبد، وليس العذاب الموقوت.

ونقول أيضاً: إن هناك عدالة عميقة كامنة فى هذا المصير.. نارًا أبدية أم جنة.. إن كل نفس بينها وبين ذلك المصير النهائى مشاكلة تامة، ومضاهاة وائتلاف فى الحقائق.. فالحقائق النارية تسكن النار والحقائق النورانية تسكن الجنة.. فلا قسوة هناك ولا وحشية، إنما وضع لكل شيء فى مكانه.

والسر الآخر الذى ينكشف لنا أن البيئة لا يمكن أن تصنع من إنسان صالح (نفسه صالحة بالحقيقة) إنسانًا مجرمًا ولا العكس، وأن الكلام على أن مظالم المجتمع جعلت فلاناً لصا، هذا الكلام لا يصدق دينيًا ولا واقعيًا. فالمجتمع يضع للجريمة إطارها فقط ولكن لا ينشئ جريمة فى إنسان غير مجرم.. بمعنى أن لص هذا الزمان تعطيه إمكانيات العصر العلمية وسائل ألكترونية وأشعة ليزر ليفتح بها الخزائن، بينما نفس اللص منذ عشرين سنة لم يكن يجد إلا طفاشة.. كما أن قاتل اليوم يمكن أن يستخدم بندقية مزودة بتلسكوب (كما فعل قاتل كنيدى) بينما هو فى أيام قريش لا يجد إلا سيفًا، ثم قبل ذلك بعدة قرون لا يجد إلا عصًا، ثم قبل ذلك على أيام قابيل وهابيل لا يجد إلا الحجارة.

إن المجتمع والعصر والظروف تصنع للجريمة شكلها، ولكنها لا تنشئ مجرمًا من عدم، ولا تصنع إنسانًا صالحًا من نفس لاصلاح فيها.

وبالمثل لا يستطيع الأبوانِ بحسنِ تربيتهما أن يقلبا الحقائق فيخلقا من ابنهما المجرم ابنًا صالحًا ولا العكس.

ونجد فى سورة الكهف حكاية عن غلام مجرم كافر، أبواه مؤمنان.

﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا﴾.

(٨٠ - الكهف)

وأكثر الأنبياء كانوا من آباء كفرة، واستجابت أكثر الأقوام لهؤلاء الأنبياء ولم يستجب الآباء.

من الذى يستطيع أن يقلب حقائق الأنفس ويغيرها؟ لا أحد سوى الله وحده.

والله لا يفعل ذلك إلا إذا طلبت النفس ذاتها أن تتغير وابتهلت من أجل ذلك، لأنه واثقنا جميعًا على الحرية التامة وعلى أنه لا إكراه فى الدين.. وأن من شاء أن يكفر فليكفر، ومن شاء أن يؤمن فليؤمن.. وأنه لن يقهر نفساً على غير هواها.. وأنه لن يغير من نفس إلا إذا بادرت بالتغير وطلبت التغير.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

(١١ - الرعد).

وتلك هى التزكية.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء﴾.

(٢١ - النور).

وعلى الإنسان أن يبدأ بتزكية نفسه وتطهيرها.

﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾.

(٩، ١٠- الشمس)

﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾.

(١٨ - فاطر)

ولا سبيل إلى تطهير النفس وتزكيتها إلا بإتقان العبادة والتزام الطاعات، وإطالة السجود وفعل الصالحات.

وبحكم رتبة العبودية يصبح الإنسان مستحقًّا للمدد من ربه، فيمده الله بنوره ويهيئ له أسباب الخروج من ظلمته.

وذلك هو سلوك الطريق عند الصوفية بالتخلية (تخلية النفس من الصفات المذمومة)، ثم التحلية (تحلية القلب بالذكر والفضائل) والتعلق والتخلق والتحقق.

والتعلق عندهم هو التعلق بالله وترك التعلق بما سواه.

والتخلق هو محاولة التحلى بأسمائه الحسنى، الرحيم والكريم

والودود والرءوف والحليم والصبور والشكور.. قولا وفعلا.

والتحقق هو أن تصل إلى أقصى درجات الصفاء واللطف والمشاكلة، فتصبح ربانيًّا فى طباعك أو تكاد.

ولا سبيل إلى صعود هذا المعراج إلا بالعبادة والطاعة والعمل الصالح، والتزام المنهج القرآنى والسلوك على قدم محمد العبد الكامل، والعارف الكامل عليه صلوات الله وسلامه.

والذى يعلق على هذا الكلام فيقول:

قولك عن النفس أنها «السر» هو كلام أغمضت فيه، وألغزت وحجبت وما كشفت.

أقول له إن نفسًا فيها القابلية للحركة على جميع تلك المعارج صعودًا وهبوطًا، وفيها القابلية أن تكون ربانية أو شيطانية أو حيوانية أو جمادية.

نفس بهذه الإمكانيات هى «السر الأعظم» ذاته.

ومن ادعى أنه أدرك السر الأعظم؟!!

إن هى إلا أصابع تشير.

والمشار إليه لا يعلمه إلا الله.

ونحن جميعًا لا نعلم.

أسْلوب خطبة الجمعة

فى هذا الجزء الأخير من القرن العشرين.. والأقمار الصناعية تدور فى الفضاء، والصواريخ تنطلق إلى الشمس، والصور تنتقل بالتلستار، والأخبار تطير بالتلكس، والأعمى يتحسس طريقه بعقل ألكترونى، والغواصة تشق ظلمة الأعماق بمحرك ذرى.. وسط هذا الغمر الهائل من الوسائل العلمية والتحديات التى تبهر العقل، نرى شيخ الجامع يخاطب الناس من على منبر القرون الخوالى وكل ذخيرته فى الدعوة إلى الإسلام هى تهديد المؤمنين البسطاء الذين سعوا إليه بأن مصيرهم الحرق فى جهنم، وبأن من يلبس من زوجاتهم «نصف كم» سوف تشوى أذرعهن فى النار، ومن يتأخر فى صلاته ليؤديها قضاء سوف يلقى به فى برميل من

الزفت المغلى، ومن يدخر نقوده فى بنك سوف يرشق بالأسياخ المحمية.. أما الذى ينظر إلى محرم فنصيبه أن تقلع عيناه وتوضع مكانهما جمرتان لا تنطفئان.. ثم يؤيد كلامه بأحاديث نبوية مرعبة بإسناد طويل عن ابن عنبسة عن الهيثم بن عدى عن ابن أيوب الموصلى عن الكلبى عن التغلبى عن ابن إدريس عن ابن الحضرمى.. وكل هؤلاء نعلم عنهم الآن أنهم كانوا وضاعين للحديث كذابين وأن أكوام الكتب الصفراء التى تركوها كانت زيفًا وتشويهًا، وأن نبينا، وهو نبى الرحمة والشفاعة والمغفرة، لم يقل شيئًا من تلك البشاعات.

وتضيع عظمة الدين فى طوفان هذه النظرة الضيقة المتعصبة، بل قد يطلع علينا شيخ يشتم العلم، ويشتم كل من يفسر القرآن بالعلم، وينادى بالفصل بين الدين والعلم.. ويقول بأن القرآن كتاب عقيدة وتشريعات أزلية ووصايا خلقية، ولا يصح ولا يجوز الربط بينه، وبين معارف علمية زائلة فانية.

بل قد نسمع من الشيوخ من يأمرنا بالتسليم الإيمانى فى قضايا الدين، وينهانا عن الخوض بالجدل العقلى.

وينسى هؤلاء أن جوهر ديننا هو العلم والعقل، وأن الله قال لنبيه.. ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾. وأن خواتيم أكثر الآيات..

لعلهم يعقلون.. لعلهم يفقهون.. لعلهم يتدبرون.. بل ونرى القرآن يهتف فى صراحة:

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.
(١١١ - البقرة).

مؤكدًا بذلك دور العقل وشرف الحجة والبرهان. وضرورة المنطق.

وقد أشاد القرآن بأولى العلم وأولى الألباب الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض. وأمرنا الله:

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾.
(٢٠ - العنكبوت)

وهو أمر صريح بالسير والنظر وجمع الشواهد والبينات بحثًا عن بداية الخلق وأصله، مع أن القرآن يقول بأن أصل الخلق من طين.. وكان يمكن الاكتفاء بهذا دون بحث إذا كان مراد الله منا هو التسليم الإيمانى الأعمى.

ولكن الإسلام فى جوهره أبعد ما يكون عن التسليم الأعمى.. وهو أكثر الأديان حضًا على العلم والتفكر.. وأول كلمة فيه.. اقرأ..

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾، هى أمر صريح بالقراءة والتعلم، جاء هذا الأمر قبل الأمر بالصلاة والصوم والزكاة.. وهى

إشادة خطيرة بأهمية العلم وبأن الله لا يعبد إلا بالعلم.

﴿وقل رب زدنى علمًا﴾ (١١٤ – طه).

﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾.
(٩ – الزمر).

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾.
(١٨ – آل عمران).

وتتكرر كلمة العلم ومشتقاته فى القرآن ثمانمائة وخمسين مرة.

هذا هو الإسلام.. وهذه دعوته.. وليست براميل الزفت والقطران ولا «الشوى» فى جهنم.

وحينما كنا نفهمه على حقيقته خرج منا العلماء العظام أمثال ابن سينا فى الطب، وابن رشد فى الفلسفة، وابن الهيثم فى الرياضيات، وجابر بن حيان فى الكيمياء، وابن النفيس فى التشريح.. وكان الإسلام عطاء ونوراً أفضناه على الدنيا.

والإسلام لا يخشى هجوم العقل بل يدعو إليه.

وهذا يحتم على الدعوة العصرية للإسلام بأن ترد بالعقل والجدل والعلم، وليس بالشتم على المذاهب والتحديات الجديدة، أمثال الفكر المادى والفكر الشيوعى.. قديننا هو الدين الوحيد الذى حبب للمؤمن بالنص الصريح أن يعمل على قدر طاقته ويأخذ على قدر حاجته.

﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾. (٢٨٦ – البقرة)

﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾. (٢١٩ – البقرة)

والعفو هو مازاد عن الحاجة.

وهو الذى قال بنص صريح إن الأموال لا يصح أن تكون دولة بين الأغنياء وحكرًا لطبقة يستمتعون بثمارها، وإنما يجب أن تفيض ثمارها على الكل.

ولكنه كان فى تشريعه الاقتصادى أكثر تفوقًا وإنسانية من المذاهب المادية، لأنه استمد سلطاته من ضمير المؤمن وليس من قهر السلطة وإكراه القوى البوليسية، وجاءت نصوصه الصريحة تؤكد على عدم تأليه الحاكم.

﴿فَذَكِّر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر﴾.
(٢١، ٢٢ – الغاشية)

﴿وما أنت عليهم بجبار﴾. (٤٥ – ق)

﴿لا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله﴾
(٦٤–آل عمران)

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. (١٠ – الحجرات).

وجعل من حرية الفرد وكرامته وأمنه قيمة تعدل فى وزنها وزن الإنسانية كلها.. فقتل نفس واحدة بريئة هى فى القرآن مثل قتل

الناس جميعًا لا يبررها مصانع تقام، ولا إنجازات تنجز ولا صحارى تعمر.

﴿من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا﴾.

وجاء ضد كل عنصرية.

وكان صهيب الرومى وسلمان الفارسي وبلال الحبشى هم الإخوة الأول فى الإسلام، وقد تعلموا من القرآن أن الله خلقهم جميعًا من نفس واحدة.

﴿اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء﴾. (١ - النساء)

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. (١٣ - الحجرات).

لاتمايز إلا على أساس التقوى والخلق، فالكل أبناء أب واحد.

والاجتهاد فى فهم القرآن على ضوء المعارف الجديدة أمر واجب فى الدعوة العصرية، فالقرآن موسوعة وليس كما زعم البعض كتاب عقيدة وأخلاق وتشريع فقط.. والقرآن تعرض للفلك والكونيات والطب، وعلم الأجنة ونشأة الخليقة، والسياسة وعلم النفس بآيات ونصوص صريحة محددة تحتاج إلى اجتهاد رجل العلم، ولا علاقة لها بأخلاقيات ولا بتشريع.

﴿يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث﴾. (٦ - الزمر)

ماهو ذلك الخلق المتتابع.. وما هى الظلمات الثلاث؟ هذه أمور لا يستطيع أن يفتى فيها إلا عالم أجنة.

وبالمثل ما جاء عن السمٰوات السبع.. وعن السماء ذات الحبك (أى ذات الممرات).. وعن دحو الأرض.. ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ والدحو فى القاموس يعنى البسط ويعنى التكوير معًا.. وعن الليل ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾. (٥ - الزمر)

وعن زوجية الأشياء.

﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ إشارة إلى سالب وموجب.. ومادة ومادة مضادة.. وإلى الاستقطاب فى قطبين.. وإلى الجزىء اليمينى والجزىء اليسارى الذى عرفناه فى الكيمياء.. إلى آخر ما تحكى لنا العلوم الحديثة عن زوجية الأشياء.

وعن مبدأ الخلق.

﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾. (٣٠ - الأنبياء)

﴿خلق كل دابة من ماء﴾. (٤٥ - النور)

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾.
(١٢ - المؤمنون).

وعن نشأة جنس الجنين من النطفة المنوية.

﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى﴾.
(٤٥، ٤٦ - النجم)

لم يقل من نطفة الأنثى بل من نطفة الرجل. وهذه حقيقة علمية.

وعن النجوم والكواكب فى السماء.

﴿كل فى فلك يسبحون﴾. (٣٣ - الأنبياء)

﴿كل يجرى لأجل مسمى﴾. (٢ - الرعد).

لا يوجد جرم فلكى فى حالة سكون وإنما الكل يتحرك.. والكل يجرى لأجل.. وله ميلاد وموت كما أن للإنسان ميلادًا وموتًا.. وهذه كلها علوم ومعارف علمية على وجه التحديد ولا علاقة لها بوصايا خلقية أو تشريعات أزلية ومفتاحها فى اجتهاد الميكروسكوب والتلسكوب وكيمياء الجزىء والذرة وعلوم الحياة وبحث العقل فى أرجاء الكون.

وهذا الاجتهاد العصرى مطلوب، ولا خوف على القرآن من اختلاف التفاسير؛ فهناك أكثر من ألف تفسير مختلف ولم يضر

هذا الاختلاف القرآن شيئًا وإنما كشف لنا عن خصوبته.

هذه الفجوة المصطنعة المفتعلة بين الدين والعلم لا وجود لها فى الإسلام، فالإسلام دين علم يزدهر بالعلم والجدل، ويزداد نضارة بهجوم العقل عليه، لأنه حق ولا خوف على الحق من جرأة المجترئين.

وهذا الانفصام المرضى فى العقلية الشرقية بين معارف العلم ومعارف الدين هو انفصام مفتعل، روج له الاستعمار ليعزل البلاد المتخلفة عن روح العصر، ويعزل الدين ويحنطه فى داخل الكتب الصفراء ليسهل بعد ذلك طعنه والقضاء عليه كشىء قديم متحفى مهلهل عفا عليه الزمن.

ونأتى بعد ذلك إلى أهم جانب فى الدعوة العصرية وهو القدرة على مخاطبة الشباب بأسلوبه وأدواته.

إن الشباب يذهب إلى السينما والمسرح، ويجلس أمام الراديو والتليفزيون، ويستمع إلى الأغنية .. فالدعوة العصرية يجب أن تدخل إليه من كل تلك القنوات.

على الدعاة أن يختاروا لدعوتهم القوالب العصرية الجديدة، فيضعوا أهدافهم فى أشكال فيلمية ومسرحية، ومسلسلات تليفزيونية وبرامج ترفيهية.

وعلى الدعوة العصرية أن تتجنب الديباجات الكلاسيكية

القديمة والعبارات المكررة المحفوظة، وأن تستخدم العبارة البسيطة المختصرة، والنظرة الموضوعية والأسلوب العلمى الذى يقنع العقل.. وأن تعمد إلى الاستدلالات الحسية البليغة من واقع الحياة.

﴿إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة﴾.
(٢٦ - البقرة)

فلماذا يستحى رجل الدين من استخدام السينما والتليفزيون والمسرح وغيرها ليقدم مفاهيمه.. ولماذا يختار أمثلته وشواهده من عصر عثمان بن عفان ومعاوية وهو يعيش فى أكثر العصور خصوبة وثراء.. ولماذا يقتصر على منبر الجامع فى عصر تعددت فيه المنابر الإعلامية، وأصبح فيه التليفزيون أخطر هذه المنابر جميعًا. فلماذا نترك هذا المنبر لأعدائنا يروجون فيه للإلحاد والانحلال ونسجن أنفسنا داخل قوقعة المسجد .

وعلى الدعاة العصريين أن يلموا إلمامًا تامًّا بجميع الفلسفات الغربية والشرقية الإلحادية، والمذاهب الاقتصادية والسياسية الجديدة، وبوجوه قوتها وضعفها، وبأساليب الرد عليها بالعلم والرأى الموضوعى، وليس بالسباب والشتم أو الدعاوى الإيمانية.

إن أسلوب خطبة الجمعة التقليدى لم يعد يجدى فى الدعوة فى عصر تيسرت فيه السبل والأدوات، وتعددت المغريات التى

تسابق رجل الدين إلى قلوب الشباب.. وأعداء الدين أصبحوا حيتانًا بأسنان ذرية وعقول ألكترونية.. وعلينا أن نحاربهم بأسلحتهم .. وعلينا قبل كل شيء أن نتعلم السباحة فى مياههم ولا نسجن الدين فى درقة سلحفائية تنادى من على منبر مهجور وفى يدها سيف خشبى.

بل إن خطبة الجمعة ذاتها عليها أن تتزود بكل ما قلناه من علوم العصر وحيله وأساليبه لتستطيع أن تناقشه وتقوده.. وبمثل ما يتكلم خطيب الجامع من ميكروفون.. عليه بالمثل أن يتكلم مستخدمًا كل ما يهبه العصر من معارف وعلوم ودهاء.

إسرائيل تحرف الأناجيل

مصداقًا على كلامنا الذى قلناه عن التوراة طالعتنا الأخبار أخيرًا بأن اليهود الذين أدمنوا تحريف الكتب المقدسة أصدروا طبعة جديدة من الإنجيل، حرفوا فيها وبدلوا وغيروا على هواهم الكثير من الآيات.

وبلغ عدد التحريفات فى أناجيل مَتَّى ومرقس ولوقا ويوحنا ٣٥١ تحريفًا.. أما فى سفر أعمال الرسل فبلغت جملة التحريفات ١٦٥ تحريفًا وفى الرسائل الأخرى - (الرسالة إلى أهل رومية ٦٢ تحريفًا.. والرسالة إلى أهل كورنثوس ١٧ تحريفًا.. والرسالة إلى أهل غلاطية ١٢ تحريفًا).

وتهدف جميع هذه التحريفات إلى تبرئة اليهود من دم المسيح..

فى إنجيل «مَتّى» على سبيل المثال فى النسخة الأصلية نقرأ عن المؤامرة على المسيح:

«حينئذ اجتمع رؤساء الكتبة والكهنة وشيوخ الشعب إلى دار رئيس الكهنة الذى يدعى قيافا وتشاوروا لكى يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه» ٢٦: ٣ – ٤.

وفى النسخة المزورة تشطب كلمة «ويقتلوه» وتحرف إلى كلمة «وينفوه» فتصبح العبارة هكذا:

«وتشاوروا لكى يمسكوا يسوع بمكر وينفوه».

وفى مكان آخر نجد فى النسخة الأصلية:

«وفيما هو المسيح يتكلم إذا يهوذا أحد الاثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا الذى أقبله هو هو أمسكوه حينئذ تقدموا وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه» ٢٦: ٤٧ – ٤٨ – ٥٠.

* وفى النسخة المزورة يشطبون «رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب» وهم اليهود بالطبع ويضعون بدلهم كلمة «رعاع كثير».. فنقرأ النص هكذا:

«وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الاثنى عشر قد جاء ومعه

رعاع كثير بسيوف وعصى، والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا الذى أقبله هو هو أمسكوه».

فى الإصحاح ٢٧: ١ متى النسخة الأصلية نقرأ:

«ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه».

وفى النسخة المزورة تبدل كلمة «يقتلوه» إلى كلمة «يدينوه»:

«تشاور جميع الكهنة والمتشرعون على يسوع لكى يدينوه».

وفى حادث الصلب نقرأ تبديلا خطيرًا، فاليهود فى النص الأصلى يصرون على صلب المسيح ويقولون.. دمه علينا وعلى أولادنا:

«فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا» ٢٧: ٢٣ - ٢٦.

أما فى الطبعة المزورة فنقرأ:

«فأجاب الرعاع وقالوا دمه عليه».

أى على رأس المسيح نفسه.. وبذلك يبرئون أنفسهم وأولادهم من دمه.. ويلقون بالدم على رأس الضحية.

وللأهمية نقدم النصين باللغة الإنجليزية:

Then answered all the people and said his blood be on us and on our children.

وفى النص المحرف:

Then answered the rabble and said his Blood be upon him.

وفى إنجيل مرقس تتكرر نفس المحاولات بنفس الهدف:

«ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت» ١٠: ٣٢ - ٣٣.

فيشطبون كلمة الموت ويبدلونها هكذا:

«ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى الكهنة والكتبة فيدينونه»

وفى مكان آخر:

«وكان الفصح وأيام الفطير بعد يومين وكان رؤساء الكهنة يطلبون كيف يمسكونه بمكر ويقتلونه» ١٤: ١.

نقرؤها فى النسخة الإسرائيلية:

«وكان الكهنة والكتبة يطلبون كيف يمسكونه بمكر وينفونه» فيبدلون كلمة القتل بالنفى.

وعن الصلب نقرأ فى النسخة الأصلية:

فصرخوا أيضًا اصلبه.

فقال لهم بيلاطس: وأى شر عمل.

فازدادوا جدًّا صراخًا اصلبه ١٥: ٩ - ١٤.

وفى النسخة المزورة يشطبون كلمة الصلب ويستبدلونها هكذا:

فصرخوا أيضًا ابعده عنا.

فقال لهم بيلاطس: وأى شر عمل.

فازدادوا جدًّا صراخًا ابعده عنا.

وفى إنجيل لوقا يحرفون كلمة «يقتلونه» إلى كلمة «يضايقونه»

فى النسخة الأصلية:

«وقرب عيد الفطير الذى يقال له الفصح وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه» ١٤: ١.

وفى النسخة الإسرائيلية:

«وكان الكهنة والكتبة يطلبون كيف يضايقونه».

وعن الصلب نقرأ فى النسخة الأصلية:

«فناداهم أيضًا بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع فصرخوا قائلين اصلبه اصلبه» ٢٣: ٢٠-٢١.

وفى النسخة الإسرائيلية:

«فناداهم أيضًا بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع فصرخوا قائلين ابعده عنا ابعده عنا».

وفى إنجيل يوحنا:

«فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه» ٥ : ١٦ - ١٨.

نقرؤها محرفة هكذا:

فمن أجل هذا كان أهل اليهودية يطلبون أكثر أن يضايقوه.

وفى مكان آخر:

«أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس، لماذا تطلبون أن تقتلونى» ٧: ١٩ نقرؤها فى النسخة الإسرائيلية:

«أليس موسى قد أعطاكم الكتاب المقدس وليس أحد منكم يعمل الكتاب المقدس، لماذا تطلبون أن تضايقونى».

وعن الصلب نراهم يلصقون تهمة صلب المسيح فى الرومان بينما هى صريحة على اليهود فى النسخة الأصلية:

«فحينئذ أسلمه إليهم (إلى اليهود) ليصلب. فأخذوا يسوع ومضوا به».

نقرؤها فى النسخة الإسرائيلية:

«فحينئذ أسلمه إلى الرومان ليصلب فأخذوا يسوع ومضوا به».

ونقرؤها هكذا فى الإنجليزية:

Then he delivered him therefore unto them to be crucified

وفى النسخة الإسرائيلية:

Then he delivered him therefore unto Romans to be crucified.

وفى سفر أعمال الرسل:

نقرأ فى النسخة المعتمدة:

«وقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال: أيها الرجال اليهود.. أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال.. يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم».

«هذا أخذتموه مسلمًا بمشورة الله المحترمة وعلمه السابق وبأيدى آثمة صلبتموه وقتلتموه» ٢: ١٤ - ٢٢

وفى النسخة الإسرائيلية نقرأ الختام هكذا:

«هذا أخذتموه مسلمًا بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وقد صلبته أيدى الرومان وقتلته»

You have taken and the Roman hand have crucified and slain him.

إلى هذه الدرجة من الجرأة والفجور يبدلون كلمات لا يصح أن تبدل ويحرفونها عن مواضعها. ومتى يحدث هذا.. اليوم. وفى

هذا العصر.. وتحت سمع الكنيسة وبصرها وتحت سمع العالم وبصره.

والطبعة المزورة صدرت عام ١٩٧٠ بالقدس عن دار النشر اليهودية.

وقد ارتكبوا هذه الجريمة اعتمادًا على وثيقة التبرئة التى أصدرها المجمع المسكونى والتى برأت اليهود من دم المسيح.. وأصدرها البابا بولس السادس فى أكتوبر ١٩٦٥ وقال فيها:

«إن ما ارتكب ضد المسيح لايمكن أن يعزى دون تمييز إلى جميع اليهود الذين كانوا عائشين إذ ذاك ولا إلى يهود أيامنا».

علمًا بأن التوراة صريحة بأن ذنوب الآباء يكفر عنها الأبناء.

وفى سفر الخروج ٢٠ : ١٥:

«أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء:

وكانت نتيجة هذا التساهل والتسامح الذى وقعت فيه الكنيسة أن امتدت أيدى اليهود إلى الإنجيل لتعبث فيه بالتبديل والتحريف علنًا وبلا حياء.

ومن قبل كتبنا عما فعلوا بالتوراة وما حرفوا فى سيرة الأنبياء الأبرار، وكيف ألصقوا بهم السرقة والدعارة والشذوذ حقدًا وتهديمًا وتخريبًا.

وما يفعلونه اليوم أمامنا من تحريف الإنجيل وتزويره، وتبديله في علانية فاجرة هو شاهد على مافعلوه بالأمس، وهو مصداق على جرائمهم.

ومع ذلك نرى أمريكا المسيحية تؤيدهم وتساندهم بالمال والسلاح.

وتسكت الكنيسة الغربية عن جرائمهم.

ومايحدث أكبر من مجرد تحريف كتاب مقدس.

وإنما التاريخ يزور علانية.

ولقد وصفهم القرآن صادقًا حينما قال ﴿وإنَّ منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وماهو من عند الله﴾.
(٧٨ - آل عمران)

وإنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ (١٣-المائدة)

وإنهم ﴿يفترون على الله الكذب﴾ (١١٦-النحل)

وأنذرهم بمصيرهم قائلا:

﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين﴾ (٦٠-الزمر)

ونحن ننتظر من كنيستنا الشرقية وعلى رأسها رجل بار

مستنير هو الأنبا شنودة أن يقوم بالاحتجاج والتجريم لهذه الأعمال على مستوى العالم، وأن تستنهض الكنيسة الغربية إلى عمل موحد لفضح هذا التدليس التاريخى الذى لايرضى به ضمير.

العلوم الذرية والإسلام

من ألوف السنين.. ومن قبل أن يمتلك الإنسان معامل للطبيعة والكيمياء، ومن قبل أن تتاح له فرصة التحليل المعملى للمادة.. كان مشغولا باكتشاف سر المادة وتكوينها، وكان يحاول أن يفض ألغازها وأسرارها بعقله المجرد بالنظر والتأمل، بينما كان أهل الشطح من الصوفية يحاولون الوصول بالإلهام.

وإنه لأمر عجيب ومدهش أن نعثر فى مخطوطة للصوفى المسلم جلال الدين الرومى منذ حوالى الألف سنة عبارة يقول فيها:

لو فلقت الذرة لوجدت فى داخلها نظامًا شمسيا».

ونجد نفس العبارة لفريد الدين العطار من تسعمائة سنة:

الذرة فيها الشمس.. وإن شققت ذرة وجدت فيها عالمًا، وكل

ذرات العالم فى عمل لاتعطيل فيه.

وكذلك نجد رهبان البوذية يرددون فى تعاليمهم منذ أربعة آلاف سنة أن المادة تنقسم لأصغر جزء فيها.. وذلك الجزء الأصغر هو وحدة قائمة بذاتها، وتحتوى تلك الوحدة على نظام من «الداهرمات» يتراوح عددها من ٨ إلى ١٢ داهرمًا.. وهذه الداهرمات تولد لتفنى سريعًا ويبقى تأثير الواحد لفترة قصيرة ثم يعقبه غيره.

وهذه الأقوال العجيبة تطابق أحدث ماكشفه العلماء الآن عن المادة والذرة باستخدام أحدث المختبرات وأعقد وسائل البحث والاستقراء.

كيف وصل هؤلاء الناس بإلهامهم إلى قلب الحقيقة هكذا دفعة واحدة.. وبدون مقدمات.. وبدون وسائل.. وبدون مختبرات.

بل إننا لنرى القرآن يشير إلى الذرة من ألف وأربعمائة سنة على أن لها مثقالا.. ويقرر أن هناك ما هو أصغر من الذرة، مؤكدًا بذلك أنها كتلة قابلة للقسمة.

﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولاأكبر إلا فى كتاب مبين﴾ (٦١-يونس)

وفى سورة سبأ تتكرر الإشارة بنفس الكلمات:

﴿لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا

أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾ (٣-سبأ).

وقديمًا قال فلاسفة المعتزلة المسلمون بأن المادة تتجزأ حتى تصير إلى جزء لايقبل التجزئة أوالقسمة هو ما أسموه «بالجوهر الفرد» أو الذرة فى قاموسنا، ووافقوا فى ذلك ما ذهب إليه فلاسفة الإغريق.

وأنكر فلاسفة مسلمون هذا المذهب، فقال إبراهيم النظام:

لاجزء إلا وله جزء، ولا بعض إلا وله بعض، ولا نصف إلا وله نصف، وإن الجزء يجوز تجزئته أبدًا.

كما أنكر الفارابى وابن الهيثم وابن سينا والكندى هذا المذهب وقالوا بأن الجوهر الفرد أو الذرة تقبل التجزئة لما هو أصغر منها.

والذرة فى العلم الحديث بناء ونظام أشبه بالنظام الشمسى فى أنها تتألف من نواة كبيرة نسبيا يدور حولها ألكترونات بالغة الصغر فى أفلاك متعددة، وبين الاثنين فضاء وخلاء هائل.. ويستحيل تقدير مكان الألكترون فى لحظة معينة إلا على وجه الاحتمال.. وهو من فرط سرعته أشبه بسحابة تغلف النواة.

والألكترون سالب الشحنة.. وهو يستطيع أن يقفز من مداره إلى مدار داخلى أقرب إلى النواة أو إلى مدار خارجى مبتعدًا عنها، وهو بهذه الحركات يأخذ أو يعطى شحنة كهرمغنطيسية مقدارها

فوتون واحد.. وتتوقف شحنة الفوتون على المدار.. والفوتون هو الوحدة العلمية لطاقة الضوء.

ويستطيع الألكترون أن يقفز سبع قفزات عبر سبع أفلاك عبر سبع مستويات من الطاقة، أو سبع سموات خارجًا من الذرة، وهو فى أثناء ذلك يعطى السبع فوتونات التى تؤلف الضوء الشمسى.

والنواة موجبة الشحنة.. والذرة بجمعها بين النواة الموجبة والألكترونات السالبة الشحنة.. تعتبر متعادلة.. ولكن إذا انطلق الألكترون هاربًا من ذرته فإن شحنة الذرة الموجبة ترجح وتتحول بذلك إلى أيون موجب.

والحرارة الشديدة فى باطن الشمس تستطيع أن تقشر الألكترونات عن ذراتها فتحولها إلى أيونات موجبة، وتستطيع أكثر من ذلك أن تفك النواة إلى محتوياتها، وبذلك تنفرط الذرات إلى بلازما أولية.

والأيدروجين يتحول فى باطن الشمس بهذه الطريقة إلى بلازما أولية، ثم يعاد توليف وتركيب هذه البلازما بالحرارة أيضًا إلى ذرات جديدة ثقيلة من الهليوم مع إطلاق طاقة تناظر ملايين وبلايين القنابل الأيدروجينية.

وهذه الطاقة هى التى تأتينا من الشمس على شكل ضوء

وحرارة وإشعاعات متنوعة، منها الضار والقاتل (مثل الأشعة فوق البنفسجية والأشعة الكونية وأشعة إكس).

والأشعة فوق البنفسجية والأشعة الكونية القادمة إلينا من الشمس حينما تصل إلى الطبقات العليا من الجو، تضرب ذرات الأكسجين وتقشر ألكتروناتها وتحولها إلى طبقة الأيونوسفير المكهربة.

وهذه الطبقة المكهربة تمتص بذلك هذه الأشعة القاتلة وتحمينا منها مثل سقف أو قبة أو مظلة مضروبة فوقنا لحمايتنا.. وفى ذلك يقول القرآن فى كلماته الملهمة:

﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا﴾ (٣٢-الأنبياء)

والأرض تقذف باستمرار وفى كل لحظة بسيالات وزوابع وسحب من الألكترونات، والإشعاعات وفتافيت الذرات قادمة من الشمس، وتتوزع هذه المخلفات الذرية حول الأرض حسب خطوط المجال المغنطيسى.. وتتجمع فى أنوار ملونة فسفورية عند القطبين.

وهذه القذائف هى التى تتحكم فى الطقس والمناخ، وهى التى تسبب الأعاصير والرياح، كما أنها إذا زادت (أثناء فترات الكلف الشمسى)، تسبب ازدياد حالات الجنون والانتحار وتعجل بالثورات والحروب بتأثيرها فى الناس.

وحديثًا كشف العلم أن نواة الذرة تتألف من محتويات هى الأخرى وأنها قابلة للقسمة.. وحدد العلماء مابين ٨ إلى ١٢ جسيمًا (كما قال أصحابنا البوذيون ولاندرى كيف عرفوا) داخلة فى تكوين النواة.. منها البروتون الموجب الشحنة والنيوترون المتعادل والهيبيرون والميزون والنيوترينو والأنتى نيوترينو والبوزيترون.. وغيرها وغيرها..

وهذه الجسيمات عمرها قصير جدًّا، وهى تولد وتفنى وتتحول الواحد إلى الآخر باستمرار كما قال رهبان البوذية. كما أن لها طبيعة مزدوجة، فهى تتصرف كجسيمات، كما أنها تتصرف كموجات، ويبدو أنها هى الحالة الوسطى بين المادة والطاقة.

والكوارث التى نزلت بقوم عاد وثمود والتى فصلها القرآن يمكن أن تكون كوارث من نوع الانفجارات الذرية.. فهى تبدأ معظمها بصيحة:

﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ (٣١ - القمر).

﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾ (١٤-الشمس).

هذه الدمدمة.. أو الصيحة الحادة.. التى تشبه مانطلق عليه بالموجة فوق الصوتية، وهى إذا كانت عالية جدًّا جدًّا فإنها يمكن أن تحطم المادة وتفلق الذرة فتحدث انفجارًا ذريًّا فوريًّا.

وتفاصيل هذه الكوارث كما وصفها القرآن تشبه ماحدث فى هيروشيما وناجازاكى.. فهناك زلزال يجعل عالى الأرض سافلها، وهناك حرارة شديدة وإعصار مدمر، وهناك ضوء يعمى الأبصار، والموت يأخذ الناس أخذ الصاعقة.

﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾
(١٧ فصلت).

﴿فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾. (٤٤ - الذاريات).

والأرض التى تقلب وترفع وتدك تعود فتنزل رجومًا وحاصبًا على رءوس الناس كالمطر.

﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود﴾ (٨٢ - هود)

﴿وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين﴾
(١٧٣ - الشعراء).

ولم تكن هناك طريقة لنجاة لوط من مصير قومه إلا أن يرحل مبتعدًا مسيرة نصف يوم، مما يدل على أن الكارثة هى كارثة طبيعية لانجاة منها بكرامة أومعجزة.. وإنما لابد لمن يريد النجاة أن يهرول مبتعدًا.

وجعل الله لهرب لوط ميقاتًا هو الخروج بالليل، وجعل للكارثة وقتًا معلومًا هو الصبح، حتى يكون لوط قد قطع مسافة

أمان كافية للخروج من قطر الزلزال.

وعلى الهاربين ألاينظروا خلفهم.. لأن وهج الانفجار سوف يعمى بصر من ينظر إليه كما تقول بذلك سورة هود.

ونقرأ نفس الكلام فى سورة الحجر:

﴿فَأَسْرِ بأهلك بِقطْع من الليل واتبع أدبارهم ولايلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون﴾ (٦٥ - الحجر)

وأكثر من ذلك دلت التفاعلات والمخلفات البلورية التى وجدت فى تربة هيروشيما على أن هذه التربة قد تحولت بعد ضربها بالقنبلة الذرية إلى بقايا أشبه بما كان فى سدوم وعمورة، فى فلسطين حيث عاش قوم لوط.

حول ذلك الموضوع الطريف وحول هذه الحقائق وغيرها يأخذنا مفكر إسلامى جديد هو المهندس أحمد عبدالوهاب، فى جولة ممتعة فى كتابه الجديد الذى صدر بعنوان «أساسيات العلوم الذرية الحديثة فى التراث الإسلامى».

وهو كتاب يستحق القراءة.

الإسْلام والطبّ

الحيوانات تستطيع أن تباشر عملية التوليد بالغريزة، وهى تعرف كيف تقطع الحبل السرى، وأين ومتى تقطعه عن الجنين.

والدجاجة تستطيع أن تميز البيضة الفاسدة بين البيضات التى ترقد عليها فتنبذها وتلقى بها بعيدًا، وتستطيع أن تميز بين البيضة غير الملقحة من البيضة الملقحة.. وهى تقوم بإلهام غريزى بتقليب البيض الذى ترقد عليه كل عدد معلوم من الساعات.. ولولا هذا التقليب لماتت الأجنة بسبب التصاقها بالقشرة.

والفرخ الوليد يعرف أين أضعف مكان فى البيضة لينقره بمنقاره ويخرج.

والنحل يعرف كيف يبنى بيوته السداسية بدون مسطرة وبدون

برجل.. والنحلات الشغالة العائدة من الحقل تقوم بعمل خريطة طبوغرافية دقيقة بمكان الزهور، وذلك عن طريق الرقص وعمل إشارات بحركات بطنها تدل باقى الشغالة على جغرافية المكان بدقة لا تخيب.

وأعجب من ذلك كله هو ذلك الطب الغريزى الذى يمارسه حيوان «الوارا» حينما يلدغه ثعبان، فإنه يلجأ إلى نوع من العشب الصحراوى يسميه البدو «الرمرام» ويحك فيه جرحه. وقد لوحظ أن هذا الحيوان لا يدخل فى معركة مع الثعبان إلا إذا كان على مقربة من هذا العشب، فإذا لم يجد هذا العشب فإنه لا يدخل فى مواجهة مع الثعبان ويبادر بالهرب.. وقد أثبتت التجارب أن هذا العشب يشفى بالفعل من لدغة الثعبان، والاسم العلمى لهذا العشب هو Heliotropium ramosismumm، ومفعوله العلاجى راجع إلى تأثيره على الجهاز المناعى فى الكبد.

وهذه حقائق علمية لم تعرف إلا أخيراً.. فكيف أدرك حيوان «الوارا» هذه الحقائق، ومن أين علم بها؟

ذلك هو الإلهام المباشر والطب الإلهى بلا شك.

وهو مما أوحى به الله للحيوان.. مصداقاً للآية:

﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾ (٦٨ - النحل).

وهذا ما حدا بالمسلمين الأوائل إلى الاهتمام بالأعشاب.

وخرج من العرب عشابون عظام أمثال داود الأنطاكى وابن البيطار وكوهين العطار وعمار الموصلى.

وقد جاء الوقت الذى نعمل فيه على إحياء تراثنا الطبى العربى.

لقد قدمت الصين من تراثها الطبى الشعبى أسطورة الإبر الذهبية، ونحن نستطيع إذا عكفنا على تراثنا الطبى الإسلامى أن نقدم الكثير.

لقد ظلت أوربا حتى أوائل القرن التاسع عشر لا تعرف إلا الأقرباذين العربى، ولا تعتمد فى طبها إلا على مخطوطات ابن سينا والرازى والزهراوى وابن النفيس.

وما زالت أوربا تسمى بعض المركبات الكيماوية بأسمائها العربية.. فالطرطير هو الـ TARTAR والبورق هو BORIC والكحول هو ALCOHOL والشراب هو SIRUP

وكانت الحضارة الاسلامية هى الجامعة التى أخذت عنها أوربا علومها الطبية فى عصورها الوسطى المظلمة.

وقد حاول بعض المستشرقين أن يطمس هذا التاريخ، فقال: إن العرب كانوا مجرد ناقلين ومترجمين عن جالينوس

وأبو قراط، وأن الطب العربى طب منقول عن اليونان والهند والفرس ومصر، وليس فيه جهد إبداعى - وهو افتراء تكذبه مخطوطات الرازى وماجاء فيها من تصويبات كثيرة لأبو قراط وجالينوس.

فنرى الرازى يخطئ أبو قراط فى قوله بأن ماء الاستسقاء ascitis يصل إلى الرئة ويسبب السعال، ويصف هذا الرأى بأنه سمج.. كما يخطئه فى أن هزال الجسم يزيد من رواسب البول ويقول.. هذا رأى خطأ لا يجوز.

كما نرى ابن النفيس يخطِّئ جالينوس فى زعمه بأن هناك ثقبًا بين البطين الأيمن والبطين الأيسر فى القلب وأنهما متصلان ويقول إنه لا اتصال بين البطين الأيمن والأيسر وإن دم البطين الأيمن والأيسر لا يمتزجان إلا فى الحالات المرضية.

كما نرى البغدادى يصحح ما زعمه جالينوس من أن الفك الأسفل عظمتان ويقول بل هو عظمة واحدة.

ومعلوم أن ابن النفيس كان أول من اكتشف الدورة الدموية الرئوية الصغرى.

وقد اكتشفها الراهب الإسبانى سرفيتوس بعده بثلاثمائة سنة ونشر وصفاً لها فى مجلته الدينية.. فلما بلغت هذه المجلة جون

كالفين فى سويسرا استدعاه إلى جنيف وحاكمه واتهمه بالزندقة وحكم عليه بالحرق.

هذا كان تاريخهم مع علمائهم، وهذا كان تاريخنا.

بل إن أوربا لم تنهض من كبوتها إلا حينما أخذت بالنظرة الإسلامية إلى العلم.

إن تصحيح هذه الأوهام أمر ضرورى.

.. فأسوأ ما تصاب به أمة أن تكون بلا ذاكرة.

وما أكثر ما استحدث هؤلاء الرواد القدماء فى صناعة الطب.

كان الزهراوى أول من عالج حصوة المثانة بالتفتيت..

وكانت له محاولات متطورة فى علاج البواسير والناصور والأورام السرطانية والفتق.

وكان الرازى أول من تكلم عن التشخيص المقارن differential diagnosis حينما تختلط الأمراض وتتشابه علاماتها.. وقد وصف الجهاز الهضمى بدقة كما وصف تشريح المعدة وطبقات العضلات المختلفة فيها تمامًا، كما نصفها اليوم.. وفرق بين النزيف المتسبب من القرحة والنزيف المتسبب من بواسير المرىء ووصف أقراص الطباشير للحموضة، وهو علاج نستعمله الآن.. وقدم وصفًا دقيقًا لمرضى الكزاز tetanus وقال عن وجه المريض بهذا

الداء إنه يبدو كما لو كان يضحك، وهو ما نسميه الآن risus sardonicus وقال إن مريض الكزاز يموت مختنقاً بسبب تشنج عضلات التنفس وتوقف حركاتها، وهو كلام علمى دقيق.

وللرازى رأى جيد فى علاج الحروق بالماء البارد، وتلك آخر صيحة الآن فى علاج الحروق حيث توضع الذراع أو الساق المحروقة فى الماء البارد لمدة دقيقتين لتقليل الألم ولتقليل فقدان البلازما.

ويقول ابن سينا فى خلع الفقرات.. إن كانت الفقرة الأولى فى العنق مات صاحبها فى الحال لأن عصب التنفس ينضغط فلا يفعل فعله، وإن كانت من الفقرات السفلية لم يمتنع التنفس ولكن يمتنع التبرز والتبول.. وهذا كلام علمى دقيق.

وقد سبق الزهراوى الجراحين بألف عام إلى اكتشاف جراحة دوالى الساق بطريقة سل العروق stripping of veins وهو أسلوب لم يعرف إلا منذ ثلاثين عاماً.

وقد عرف العرب التخدير باستعمال البرودة الشديدة والأعشاب المرقدة، كالحشيش والسكران والداتورا والبلادونا.

وعرفوا طب الأسنان وخلعها وحشوها، وذكر الرازى سبعة أنواع من المعاجين والمساحيق لعلاج الأسنان وهى لا تخرج فى تركيبها عن المعاجين الحالية من حيث احتوائها على المواد

العطرية والمواد المطهرة والمواد الحاكة والمواد القابضة والمواد المزيلة للروائح.. كما عرفوا فتح الضرس بالمثقاب وإماتة عصب الضرس باستخدام الزرنيخ.

واشتغلت المرأة العربية بالتمريض والطب من قديم.. وفى أيام النبى عليه الصلاة والسلام كانت رفيدة الأسلمية تتخذ خيمة فى المسجد تداوى فيها الجرحى فى الحرب.. وفى أواخر الدولة الأموية كانت زينب طبيبة بنى أود من الماهرات فى صناعة الكحالة ومداواة آلام العين.

وكان العرب أول من استحضر أحماض الكبريتيك والنيتريك والماء الملكى وأيدروكسيد الصوديوم والنشادر ونترات الفضة وكلوريد الزئبق ويوديد الزئبق والأنتيمون وكثيرًا غيرها.

وكان الرازى أول من جرب أملاح الزئبق على القرود ليرى مفعولها، وأول من استخدم الزئبق فى المراهم.

وعرف العرب فى تحضير الأدوية وسائل التقطير والتبخير والترشيح والتصعيد والتذويب والطبخ والتبلور.. وكان ابن سينا أول من غلف الحبوب بالذهب والفضة، وكان الزهراوى أول من حضر الأقراص بالكبس فى قوالب خاصة.

وسبق العرب العالم فى ابتكار نظام المستشفيات.. وكانوا فى بيمارستان قلاوون يرفهون عن المرضى بالموسيقى وتلاوة

القرآن.. وكانوا يعطون كل مريض منحة مالية عند خروجه حتى لا يعجل إلى العودة إلى عمله فى فترة النقاهة.

ومن أقوال الرازى.. ينبغى للطبيب أن يوهم المريض بالصحة ويرجيه بها وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس، وتلك نظرة نفسية عميقة من طبيب قديم.

وكان يقول.. لا تعالج بالدواء إذا استطعت أن تعالج بالغذاء وحده ولا تعطى دواء مركباً إذا استطعت أن تعالج بدواء بسيط.

وفى تحرزهم فى مسألة الأدوية هذه نرى طبيبًا كبيرًا من أطبائهم هو أبو العلاء ابن زهر الأندلسى يقول:

أقسم بالله أنى ماسقيت دواء قط مسهلا إلا واشتغل بالى قبله بأيام وبعده بأيام فإنما هى سموم، فكيف حال مدبر السم ومسقيه.

وهذا طبيب كبير يتردد فى كتابة دواء ملين ويقلق ويشتغل باله مخافة الإضرار بمريضه.

فأين هذا الطبيب من أطباء اليوم الذين يكتبون المضادات الحيوية والكورتيزون دون تحرز وهى سموم قتالة.

-إنما هى أخلاقيات المسلم الذى يخاف ربه..

ومن النظرة الإيمانية أن تبدأ علاج المريض بأقرب الأشياء إلى طبيعته بمجرد تعديل قائمة غذائه.. فإذا لم يفلح العلاج لجأت

إلى أعشاب من بيئته تقدمها له دون أن تغير طبيعتها ودون إضافة أو استخلاص أو تجزئة إيماناً بأن الله وضع العناصر الشافية في داخل هذه العبوة النباتية لحكمة.

وهذه النظرية صحيحة.. ولها شواهد علمية تؤيدها.. ففي التداوي بالنبات المسمى «بذر جوتونا» واسمه العلمي PLANTAGO OYATAلوحظ أن استخلاص العنصر الدوائي وهو القشر من البذور وتناوله منفرداً لعلاج القولون يؤدي إلى مضاعفات حساسية.. ولا تظهر هذه المضاعفات في حالة تناول البذور على حالتها الخام.

وهذا لا يعني ألا نقوم بالتجارب وندرس ونستخلص. بل المراد ألا نتدخل إلا للضرورة وأن ننظر باحترام إلى الطبيعة ومنتجاتها باعتبارها صناعة يد إلهية حكيمة لا تخطئ.

وعسل النحل وخواصه الشفائية شاهد على هذا الأمر.

وفي القرآن إشارات إلى مسائل ما زالت إلى الآن من قبيل الأسرار، فحينما يشكو أيوب لربه من مس الشيطان:

﴿أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾.

(٤١ - ص)

يقول له ربه:

﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾. (٤٢ - ص)

الله يصف له ماء الينابيع ليشرب ويغتسل ليذهب عن جسمه من هذا المس الضار.

وفى آية أخرى عن الماء يقول القرآن:

﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ (١١ - الأنفال).

فيصف الماء بخاصتين: خاصية التنظيف والتطهير، وخاصية أخرى هى إذهاب مس الشيطان.

وفى حديث شريف يقول النبى عليه الصلاة والسلام فى علاج المحسود:

«يتوضأ الحاسد ويغتسل المحسود من وضوئه».

إنه الماء مرة أخرى يوصف ليذهب المسوس الروحية الضارة التى أحدثتها العين.

فما هى تلك الخاصية الغيبية للماء؟

ذلك باب شريف للبحث، قد يتضح لنا بيانه فى المستقبل.

وقد ظن البعض خطأ أن التداوى ليس من الإسلام وأنه ناقض للتوكل، وقال البعض لرسول الله.. أنتداوى يا رسول الله.. أيرد الدواء قدر الله.. فقال لهم النبى عليه الصلاة والسلام.. «إنما نرد قدر الله بقدر الله، فما خرج شىء عن قدر الله».

وفى الإسلام لمحات من الطب الوقائى لو اتبعتها البلاد الإسلامية لاختفت البلهارسيا والإنكلستوما من القارة الأفريقية، ولوفرت الملايين التى تنفق على العلاج بلا جدوى.

فقد نهى النبى عن التبرز فى الماء وفى الظل وفى طريق الناس وفى الحديث الثابت.

«ولا يبولن أحدكم فى الماء ثم يتوضأ منه».

«اتقوا الملاعن الثلاث: التبرز فى الماء، وفى الظل، وفى طريق الناس».

وتلك حلقة البلهارسيا المفرغة التى لا تنتهى.. تنزل البويضات فى الماء.. فتفقس اليرقات وتسبح إلى القواقع.. ومن القواقع يخرج السركاريا ليصيب الإنسان من جديد، فإذا كسرنا حلقة التبول والتبرز فى الماء.. انتهت البلهارسيا إلى غير رجعة.

والنظافة أول الشعائر الدينية عند المسلم.. فلا صلاة بغير وضوء ولا إسلام بغير غسل ولا ملبس إلا الطاهر.

يقول القرآن:

﴿وثيابك فطهر﴾. (٤ - المدثر).

والقرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى نص على الطهارة والنظافة والاغتسال.

وقد وضع الإسلام الأسس الثابتة للصحة النفسية، وذلك بالصبر والتوكل والتسليم والتفويض والحمد والشكر بعد الاجتهاد وبذل الوسع.

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ (٥١ - التوبة).

﴿عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾. (٢١٦ - البقرة).

﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾. (٥٣ - الزمر).

﴿لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾. (٨٧ - يوسف).

وذلك هو الطب النفسى الإلهى الذى عجز فرسان الطب النفسى المادى أن يلحقوا به والذى ما زال هو الباب الوحيد للسكينة والأمن حينما تسد جميع الأبواب.

فى مسألة المخيّر والمسيّر

التساؤل عن حرية الإنسان تساؤل لا ينتهى.

ومازلت أجد من يستوقفنى فى الطريق ويسألنى.. هل الإنسان مخير أم مسير ؟؟!

والذين يقرءون أكثر تساؤلا من الذين لا يقرءون.

والقضية أزلية ولا ينتهى الكلام فيها ولا ينتهى الفضول إلى كشف أسرارها لأنها مرتبطة بحقيقة الإنسان ولغز القدر.

وعمدة الحكم فى نظرى هو ما يشعر به الإنسان فى أعماقه.

فتلك الشهادة التى تأتى من الأعماق هى برهان لا يعدله برهان وحجة لا تقف أمامها حجة.

والإنسان يشعر بالفعل فى أعماقه أنه يختار فى كل لحظة بين

عدة بدائل.. وأنه ينتقى ويرجح ويفاضل ويوازن ويتخير.. وهو يحاسب نفسه ويحاسب الآخرين.. ويفرح إذا أصاب ويندم إذا أخطأ.. وكلها شواهد على أننا نتصرف انطلاقاً من بداهة مؤكدة بأننا أحرار مسئولون.

ونحن نرى يد السجان تمتد إلى سجينه فيضطهده فى لقمته ويضربه ويعذبه ويعلقه من قدميه ويقهره على الهتاف باسمه قسرًا، ويرغمه على التوقيع على ما لم يرتكب. ولكن هل نراه يستطيع مهما استخدم من وسائل الإرهاب أن يجعل هذا السجين يحبه من قلبه قهرًا.

لا..

هنا تقف كل وسائل الإكراه عاجزة.

وسوف يظل هذا السجين حتى الموت حرًّا فيما يحب ويكره.. حرًّا فيما ينوى ويضمر.. لا يستطيع أحد أن يقتحم عليه غرفة ضميره..

حتى الشيطان لا يستطيع أن يدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب وصادف إغراؤه هوى قلبك ولكنه لن يستطيع أن يحملك على ما تكره مهما بلغت وسائله.

وذلك شاهد آخر على أن الله أعتق القلب، وأعتق الضمير من كل وسائل الضغط والإكراه.

الاختيار إذن حقيقة.. وحرية القلب حقيقة.. وحرية النية حقيقة.

والسؤال هو عن مدى هذا الاختيار وحدوده؟

وكيف نزداد حرية؟

ومن هو أكثرنا حرية؟

ثم كيف تكون هناك حرية مع مشيئة الرب، وكيف تتفق هذه الثنائية مع عقيدتنا فى التوحيد؟

تلك هى علامات الاستفهام.

* * *

وبرغم قهر الظروف وكثرة الضوابط والموانع التى تحد حرية الإنسان هنا وهناك، فإن الإنسان تبقى له مساحة يتحرك فيها ويختار.. وتتسع هذه المساحة كلما اتسع علمه.

وقد أجاب الغزالى عن هذا التساؤل الأزلى بكلمات فقال: إن الإنسان مخير فيما يعلم، مسير فيما لا يعلم.. أى أنه يزداد حرية كلما ازداد علماً.

وقد رأينا مصداق هذا الكلام فى حياتنا العصرية، وشاهدنا الإنسان الذى تزود بعلوم البخار والكهرباء، والذرة يتجول فى الفضاء بالطائرات، والأقمار ويهزم الحر والبرد ويسخر قوانين

البيئة ورأينا مساحة حريته تزداد ومجال تأثيره يتضاعف.

وقرأنا فى القرآن عن الذى عنده علم من الكتاب، وكيف نقل عرش بلقيس فى طرفة عين.

وقرأنا كيف أحيا عيسى الموتى بسلطان من ربه.

وقرأنا كيف عرج محمد عليه الصلاة والسلام بمدد من الله إلى السمٰوات، وكيف جاوز سدرة المنتهى وبلغ مقام قاب قوسين أو أدنى من ربه.

وذلك هو مجال الحرية الذى يزداد كلما ازداد علم صاحبه والذى يبلغ أعلى المقامات بالعلم الربانى اللدنى، وبالمدد الإلهى الإحسانى.

فالحرية حقيقة.

والاختيار حقيقة.

والناس متفاوتون فى هذه الحرية بتفاوت علمهم، وتفاوت مقاماتهم قربًا وبعدًا من الله، لأن هذه الحرية لا تأتى إلا بالله ومن الله.

فالعلم منه والسلطان منه، والنفخة التى نقلتنا من جمادية الطين إلى إنسانية الإنسان هى نفخته الربانية، والتطلع إلى الحرية فطرة ضمن الفطر التى فطرها الله فينا.

وكل إنسان مفطور على اختيار الأحسن من وجهة نظره.

فأما الواحد من عوام الناس فيختار نفسه ومصلحته، وشهوته لأنه يرى بنظره القريب أن نفسه هى الأحسن بين جميع الاختيارات.

وأما العارف بالله فهو لا يختار إلا الله لأنه يرى بنظره البعيد أن الله هو الأحسن بين جميع الاختيارات، وهو باختياره لربه يخرج عن نفسه وعن اختياراتها، ويسلم إرادته لاختيارات الله له وذلك هو منهج الطاعة.

وهو بخروجه من نفسه يخرج من المخالفة إلى الموافقة، ومن الثنائية إلى التوحيد، ومن المعاندة إلى الانسياب مع الله فى كافة أحواله وتقلباته.

فإذا وقع فى المعصية فإنه لا يصح له أن يقول: إن الله قدرها عليه، لأن الله لا يختار لنا إلا شريعته، ولا يجب لنا إلا طاعته، وهو العارف صاحب الدعوى الذى ادعى أنه خرج من إرادته إلى إرادة ربه.. فهو إن عصى فإن معصيته تشهد على كذب دعواه وأنه مازال عند نفسه لم يبرح.

بل إن العارف الحق بخروجه من نفسه يخرج من منطقة الاختيار كلها ويدخل منطقة الإسلام.. الإسلام لله وللمشيئة الإلهية.. فهو يجتهد فى عمله لأن الله أحب له الاجتهاد، ولكنه

لايحزن لخسارة ولا يفرح لنجاح ولا ييأس على فشل، لأنه فوض النتائج إلى الله وارتضى أحكامه بلا جدل.

وبخروجه من منطقة الاختيار يخرج أيضًا من منطقة المساءلة وترفع عنه المحاسبة فيكون ممن يوفى لهم أجرهم بغير حساب.

وتلك هى سنة الفرقة الناجية.. خروج من اختيار النفس إلى اختيار الرب.. وتبرؤ من الحول والطول.. وإسقاط للتدبير.

يقول الصوفى النفرى إلهامًا عن ربه:

يا عبدى الق الاختيار، الق المساءلة البتة.

فأهل التفويض والتوكل هم أهل الجنة بالتزكية، لأنهم أسقطوا اختيارهم وعاشوا وفق الإرادة الإلهية.

أما أهل الاختيار فهم واقفون عند نفوسهم يتخيرون بين حظوظهم، وقد وكلوا أمرهم إلى عقولهم التي تخطئ وتصيب.. فوضعوا أنفسهم مع أهل المساءلة.

فمن يختار يسأل.

ومن أسقط الاختيار وأسقط التدبير لا يعود هناك مجال لمساءلته، فمثله لا تقع فى حقه معصية، لأنه أسقط مشيئته ضمن ما أسقط من اختيارات.

وشاهد إسقاط التدبير فى حق العارف هو كماله، فلا يكون

مع الله إلا الكمل.. ولا يصح الادعاء بأنك مع الله وشواهد أعمالك تدل على أنك مع هواك وشهواتك، فتلك تكون حجة الله عليك بأنك كذاب.

ولهذا لا يترك الله المؤمنين العارفين الذين يدعون أنهم من أهله وخاصته، دون أن يبتليهم ويفتنهم.. فتلك دعوى عريضة لا يصح أن تفوت دون امتحان.

﴿أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَ الكاذبين﴾. (٢، ٣ - العنكبوت).

والعجيب أن الملحدين وأهل الفكر المادى يقولون بالجبر والحتمية، ثم نرى جميع تصرفاتهم أبعد ما تكون عن هذا الاعتقاد وكان المفروض لو كانوا صادقين فى دعواهم بعدم جدوى الحرية الفردية، أن يسلموا هذه الحرية لزبهم المزعوم (المادية الجدلية) ولكن ما يحدث دائماً هو العكس، فنرى تاريخهم تاريخًا دمويا لجبابرة الحكم الفردى.. ستالين.. لينين.. منجستو.. وما منهم إلا ويقول.. أنا.. وما منهم إلا مدع يتصور أنه يصنع التاريخ.. وينسى الواحد منهم أنه قال منذ لحظات أن المادية التاريخية هى التى صنعت له وعيه وعقله وموقفه.

فإذا كانت المادية التاريخية هى التى أفرزت الفن والفكر

والدين، والوعى فكيف بك يا صاحبى تعود فتدعي لنفسك أنك تصنع التاريخ، وأنت أحد مصنوعات هذا التاريخ.. إلا أن تكون قد عدت فناقضت نفسك، وتصورت لإرادتك علوًّا على التاريخ المادى بما يشفع لها أن تعود فتصنع التاريخ من جديد.

وإذا كان للإرادة الإنسانية علو على التاريخ.. فذلك هو سبق الفكر على المادة الذى تنكرونه فى (أ - ب) فلسفاتكم.

فهذا أنتم قد تصورتم أنكم وضعتم الهرم على قاعدته، ثم عدتم فقلبتموه على سنامه.

وهؤلاء هم أهل الضلال البعيد.

أما الوجوديون والعبثيون من أهل الحياة مع الهوى واللحظة فهؤلاء يقولون إنهم اختاروا نفوسهم، فالحياة الحقة عندهم هى أن تكون نفسك.. لا تعبأ بعرف أو تقليد أو دين أو أخلاق، وإنما تعيش لحظتك كما تحب وتهوى، فأنت لا تملك غير لحظتك واللحظة التى تمضى لا تعود.

والحق أن كلًّا منهم قد اختار حيوانه، وأطاع غريزته وأسلم لنزوته واستلهم فكرته.. فهو الآخر عبد وإن تصور أنه حر.. عبد لآلهة كثيرة تتجاذبه وتتقاسمه.. ثم أنه هو وآلهته عبيد لله دون أن يدرى.. فالكل منه وإليه.

﴿قل كل من عند الله﴾.

والكون بنواميسه وما فيه من جمال وفن وفكر، وحب وقوانين مادية جدلية ونظريات عبثية ووجودية وأفكار فوضوية.. هو كون مخلوق لله.. وهو مظهر من مظاهر التجلى الإلهي والمشيئة الإلهية.. فلا شيء فيّ الكون يخرج عن مشيئة الله، وإن خرجت بعض الأشياء عن رضاه.

والكل مسلم لله طوعًا أو كرهًا.

وإنما كل الفارق هو فارق بين عارف وجاهل.

فالعارف أدرك الحقيقة فأسلم باختياره وخرج عن نفسه طوعًا وحبًّا وكرامة، وانضوى تحت المشيئة بكليته راضيًا سعيدًا.

والجاهل تصور أنه ليس عبدًا لأحد.. وأنه لا مشيئة لأحد عليه وأنه اختار نفسه (وهو ما اختار إلا حيوانه).

والحق أنه هو الآخر عبد خاضع دون أن يدرى.. وإنما هو خاضع بالكرباج، منساق بالعصا يتصور أنه يسير إلى الأمام، وهو يدور فى ساقية وعلى عينيه عصابة كالثور يكدح لبطنه وشهواته.

وقد أخرجه جهله وعناده من القرب إلى البعد.

ولأهل البعد النار ولأهل القرب الجنة.

وإنما تكون الجنة مكافأة لعارف عرف.

ولا حرية إلا لعارف.

ولا حرية إلا بالله ومن الله.

ولا تأتى الحرية إلا خلعة من الله.

إنما تأتى حرية العارف من أنه اختار ربه فخلع الله عليه حريته وصفاته، فأصبح العبد الربانى الذى يرى ببصر الله ويسمع بسمع الله ويحيا بحياته، وتلك هى الحرية القصوى التى يحرك بها العارف الجبال، والتى أسرى بها محمد عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى وعرج إلى السموات وجاوز المنتهى.. والتى أحيا بها عيسى الميت.

أما التحرر بمعنى التمرد على الشرائع، وعصيان الأمر الإلهى واستباحة الأعراف الخلقية فهو مثل السباحة ضد التيار، نهايتها الإنهاك والتعب ثم الغرق.

وكيف يكون الإضراب عن الطعام والشراب والتنفس حرية، وهل تكون إلا حرية الموت أو حرية القضاء على الحرية.

وكيف يكون اتباع الشهوات حرية، والشهوات ذاتها عبودية وقيد؟ وكيف تزداد حرية بدخولك فى جاكتة جبس وخضوعك لحيوانك؟

إنما التحرر لا يكون إلا خروجًا من النفس وضروراتها واستعلاء على هواها وشهواتها.

والعارف الذى خرج من نفسه واختار ربه هو بالمعنى العميق قد اختار حقيقته، فهو ما خرج إلا عن نفسه الحيوانية الأمارة وتلك نفس دونية طينية حكمها حكم الجسد.

أما حقيقة كل إنسان فهى نفسه العلوية الملكوتية التى هى على مثال النفخة الربانية التى أودعها الله فى الجسم.

وهى المثال الذى خلقه الله فى أحسن تقويم فى المبدأ الأول.

والعارف باختياره لربه قد اختار نفسه الحقيقية (النفس المثال التى خلقها الله فى أحسن تقويم).

﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾. (٤، ٥ - التين)

ولقد ردنا الله إلى أسفل سافلين حينما أودع هذه النفس العلية فى الحشوة الطينية، وابتلاها بالشهوات والحيوانية.. وتلك هى حياتنا الدون التى نحياها.. ولكن العارف بخروجه من هذه النفس الحيوانية يسترد شفافيته الأولى، ويعيش نفسه الحقيقية ويكتشف نسبه الروحانى باعتباره نفخة من الله، وهو بهذا يختار أصله وحقيقته. يختار ربه.

إنه إذن أعلى درجات الاختيار وإن كان فى الظاهر خروجًا من الاختيار وإسقاطًا للتدبير.

* * *

وحرية العبد بهذه الصورة لا تتنافى مع التوحيد.. فما أخذ العبد حريته إلا من الله، وما جاءت حريته فى أن يشاء إلا بمشيئة إلهية ودستور إلهى.. فقد أرادنا الله أحرارًا.. ولم نغتصب نحن هذه الحرية من الله اختلاسًا.

﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾. (٣٠ - الإنسان)

ثم إن الله حينما قضى علينا قضاءه المسجل فى كتابه، فإنما قضى عل كل إنسان قضاء من جنس قلبه، ومن جنس ضميره ومن جنس نيته.. من أراد حرث الدنيا مهد له فيها، ومن أراد حرث الآخرة هداه إليها.

﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾. (٢٠ - الشورى)

﴿إنْ يعلم الله فى قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم﴾. (٧٠ - الأنفال).

﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾.

(من ٥ إلى ١٠ - الليل)

﴿فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾

(١٠ - البقرة)

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾. (١٧ - محمد)

تأتى التيسيرات دائماً من جنس النية.. فلا ثنائية ولا تضاد بين اختيار الرب واختيار العبد.. وإنما الإرادتان تلتقيان فى خط واحد وإرادة واحدة.. الله يسيرك إلى عين اختيارك ويختار لك من جنس نيتك.. لا تناقض ولا ضدية.

ومراد الله بهذا أن يخرج المكتوب فى القلوب.

﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾. (٧٢ - البقرة).

ليتم الغرض من الدنيا كدار ابتلاء وامتحان.

ويظل الله هو الحاكم الأحد بلا شبهة شريك.. فلا حرية إلا به، ولا تيسير ولا تمكين إلا بإذنه.

أما خارجًا عن الله.. فلا حرية ولا حياة ولا قدرة:

فما سوى الله نار..

وما سوى الله ظلمة..

وما سوى الله قيد..

وسبحان الذى أسرى بعبده..

فلا سريان لنا إلا على جناحه..

ولا نفاذ من أقطار السموات والأرض إلا بسلطانه..

ولا حرية إلا به..

ولا نور إلا بنوره..

وهذا الاعتراف هو عين الإسلام..

وهو عين شهادة أن لا إله إلا الله..

أى لا حاكمية ولا سلطان إلا له.. تقدست أعتابه عن الند والضد، والصاحبة والولد والشريك والشبيه.

المكر الإلهى

بطل الحادث «سليمة إبراهيم» ٨٠١ جنايات الصف، اشتركت مع أخيها - ١٧ سنة - فى قتل زوجها ضربًا وخنقًا، ثم هجمت عليه وأكلت أعضاءه وهو ميت.. هكذا تقول اعترافاتها المفصلة أمام وكيل النيابة والقاضى.. وهكذا شهدت الوقائع كما تشهد الجثة.

قرأت الحادث مع الألوف الذين قرءوه، وشعرت معهم بتلك القشعريرة الباردة، والفضول إلى معرفة هذا الحادث الغريب فى وحشيته.

هل يمكن أن يبلغ الغل بامرأة إلى هذا المدى.

وماذا يمكن أن تكون صورة هذا الوجه الذى يأكل الميتة.

طالعتنى فى سجن النساء بالقناطر امرأة وسيمة، دقيقة الملامح، أسنانها جميلة كصفين من لؤلؤ.. على وجهها سكينة وطمأنينة.. تصلى وتصوم، وتنام نومًا هادئًا عميقًا.. وكلامها كله عن رحمة الله وأمر الله. وحكمة الله.. وكأنها رجل صوفى ضل مكانه.

أيمكن أن يخالف الظاهر الباطن إلى هذا الحد؟
أيمكن أن تخدع الصور، وتكذب العين واليد واللسان؟
أيمكن أن تصبح الحياة كلها تمويهًا؟
وكيف يخلق الله للحقائق البشعة وجوهًا جميلة؟
وما الدافع الذى أخرج من الباطن كل هذا الشر المخفى؟
وما الذى هتك الحجاب وكشف النفس على ما هى عليه.
الزوج تزوج عليها..
هذا أمر عادى فى البدو..
وهو يتكرر فى تلك البيئة دون أن تأكل النساء أزواجهن.
الزوج طلق الزوجة ثم ردها..
كان يسىء معاملتها أمام الزوجة الجديدة.
أهى غضبة للنفس وللكرامة؟!

ولكن الزوجة اعترفت بأنها كانت على علاقات متعددة مع

رجال متعددين أثناء الطلاق فهى لم تحفظ لنفسها كرامة..

كيف لا يبدو كل هذا الخراب النفسى على ذلك الوجه الجميل السمح الوديع، المطمئن الهادئ كأنه وجه قديس. تذكرت رجلا جميلا رأيته ذات مرة.. كان جميلا فاتنا مفتول العضل، جذاب الصورة كأنه نجم سينما.. وكان مهذبًا يتكلم بنبرة خفيضة.. وكان يجفل بنظراته فى حياء.. ثم تبين لى فيما بعد أنه مجنون يعالج بالصدمات الكهربائية.

كان باطن الرجل خرابًا مطلقًا..

وكانت حقيقته الخواء.

وكان فارغًا تمامًا ومجوفًا من الداخل.. إلى هذا المدى يمكن أن تكذب الصور وتخدع الأشكال.

« إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أشكالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ».

فى ليلة الجريمة عاد الزوج إلى زوجته بهدية من الحلوى ليصالحها « لم يكن يدرى برغم سنوات المعاشرة الطويلة أنه ينام كل ليلة مع ضبع ».. قتلته فى لحظة غزل.. كيف واتتها الشجاعة؟

نفس السؤال يلح على باستمرار.

كيف تتنكر الحقائق فى غير ثيابها؟

ويلبس الباطل الحق..

ويلبس القبح الجمال..

وتلبس الجريمة الحب.

وكيف يخلق الخالق هذه العبوات الجميلة لهذه النفوس البشعة؟ كيف يضع السم فى وردة ويضع العسل فى عقرب، ويخفى المتفجرات فى أقنعة من حرير؟

أهذا مصداق الآية:

﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾. (٧٢ - البقرة).

أهو المكر الإلهى الذى يستدرج به الله النفوس، ويمتحنها بعضها ببعض ليفضح خباياها ومكتوماتها، وليخرج حقائقها ويكشف بشاعاتها، فإذا بالمرأة الجميلة جلادًا وإذا بالرجل الدميم ملاكاً..

هى لا تشعر بندم أو تأنيب ضمير.. ويقينها أنها على الحق.

أيمكن ألّا يعرف الواحد منا نفسه؟

لقد قال أبو بكر أنه لا يطمئن إلى أنه صار إلى الجنة حتى ولو دخلت إحدى رجليه الجنة، ما دامت الرجل الثانية لم تدخل بعد.. وذلك خوفًا من مكر الله.. خوفًا من أن يكشف الله فى اللحظة الأخيرة شرًّا مكتومًا فى نفسه يدخله به النار الأبدية.. شرًّا كان

يكتمه أبوبكر فى نفسه دون أن يدرى به أو يدرى عنه.

وتلك هى ذروة التقوى..

خوف الله..

والتواضع وعدم الاطمئنان إلى براءة النفس ونقائها، وخلوها من الشوائب..

وعدم الغرور بصالح الأعمال..

وخوف المكتوم الذى يمكن أن يفتضح فجأة بالامتحان..

لم يكن أبوبكر من أهل الدعاوى..

لم يكن يدعى لنفسه منزلة أو صلاحًا..

وإنما كان من أهل الحقائق..

وأهل الحقائق فى خوف دائماً من أن تظهر فيهم حقيقة مكتومة لا يعلمون عنها شيئاً تؤدى بهم إلى المهالك، فهم أمام نفوسهم فى رجفة..

وأمام الله فى رجفة..

وذلك هو العلم الحق بالنفس وبالله..

فالنفس هى «السر الأعظم».. وهى الغيب المطلسم..

هى غيب حتى عن صاحبها.. لا تنكشف له إلا من خلال

المعاناة.. وهى فى مكر دائم تظهر وجهًا من وجوهها، وتخفى ألف وجه..

والله غيب مطلق وخفاء تام.. وهو سبحانه ذروة المكر إن صح القول..

لماذا وصف الله نفسه بالمكر؟ وقال:

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾. (٣٠ - الأنفال).

وما الفرق بين مكر الله ومكرنا..

وكيف يمكر الله..

الله يمكر لإظهار الحقيقة..

ونحن نمكر لإخفائها..

ولهذا كان مكر الله خيرًا كله، ومكرنا سوءًا كله..

مكر الله نور ومكرنا ظلمة..

مكر الله عدل ومكرنا ظلم..

وهل هناك أسوأ من مكر هذين الصفين من الأسنان اللؤلؤية التى تأكل الميتة، وتمتص الدم البارد وتوشوش بالحب، وتضمر الموت؟!

شىء واحد فى مظهر هذه المرأة العجيبة كان ينم عليها.. هو صوتها..

ذلك الصوت النحاسى المعدنى الذى يخرج عاليا حادًّا رتيبًا على الدوام، وكأنه يخرج من أنبوبة معدنية وليس من قلب يشعر.

صوت لا يبدو فيه حزن ولا فرح ولا غضب..

صوت معرى مجرد من جميع المشاعر..

صوت أقرع أملس لا يشف عن أى انفعال.. يعطيك الإحساس دائما بأن هناك شيئًا غير إنسانى يتكلم، وإنك أمام جماد ينطق..

تتكلم عن الحب كما تتكلم عن الكراهية..

تتكلم عن رحمة الله كما تتكلم عن انتقامه بنفس الوجه الجامد والنبرة النحاسية الرتيبة..

يخيل لمن يسمعها أن هناك شخصًا آخر يتكلم فى داخلها.. شيطانًا.. أو جنًّا.. أو ملقنًا يتكلم من وراء خباء..

هل يمكن أن تتلبسنا الشياطين..

الله يقول إن الشياطين لا تتسلط إلا على أشباهها، وإنه لا بد أن تكون هناك مشاكلة ومجانسة بين اثنين ليتسلط واحد على الآخر..

﴿شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا﴾. (١١٢ - الأنعام).

الشيطان لا يتسلط إلا على شيطان مثله، حيث يمكن التواصل والتأثر بحكم المشاكلة..

أما عباد الله فلا مدخل للشيطان عليهم..

فالله يقول لإبليس..

﴿إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾. (٤٢ - الحجر).

فلا حجة لمن يقول.. تسلط علىّ الشيطان.. فنحن نرد عليه قائلين.. (لأنك شيطان مثله).

ولمن يتصور أن المكر الإلهى ينافى العدل.. نقول بل هو عين العدل.. فالله لا يمكر إلا بماكر.

﴿يمكرون ويمكر الله﴾. (٣٠ - الأنفال).

﴿يكيدون كيدًا، وأكيد كيدًا﴾. (١٥، ١٦ - الطارق).

وحقيقة الأمر أن الله يسلط على الإنسان الذى يخفى شيئًا فى نفسه إنسانًا آخر يخفى شيئًا فى نفسه.. وهذا منتهى العدل..

بل نحن أمام ميزان مضبوط تمامًا.. ففى كلتا الكفتين نفس ماكرة تخفى شيئًا.

ثم أنه من تماكر الاثنين بعضهما ببعض تظهر الحقيقة..

وهذه هى الدنيا..

ولهذا خلقها..

لإحقاق الحق..

ما خلق السموات والأرض إلا بالحق.

وهذا عين الخير فى أمر خلق الدنيا برغم ما يبدو من دم وجريمة وشر وبشاعة.. فالعبرة بالخواتيم..

وشرور الدنيا زائلة مهما استحكمت..

ولا أهمية لشر زائل مادام سوف يكشف لنا فى الختام عن خير باق..

ولو فكر الواحد منا فى الأمر تفكيرًا هادئًا، ولو تأمل ما يجرى فى الدنيا حوله فى عمق لأدرك أن الأمر جاد برغم ما يبدو فى الظاهر من هزل وعبث، فكل شىء محسوب، وكل شىء يجرى بموازين دقيقة.

ونحن الماكرون الماهرون.. وكل واحد فينا يتصور أنه يخطط بفطانة.. وذكاء.. نحن بدون أن ندرى، يكشف بعضنا بعضًا، ونكشف أنفسنا من خلال مآزق الشطرنج المتوالية التى تزجنا فيها المقادير، ونفتضح عبر هذا الفعل المتسلسل الذى اسمه الدنيا حتى لا تبقى فينا باقية.. ثم نموت وقد ظهر المكتوم.

والذين يدركون تمام الإدراك لب القضية تصيبهم الرجفة من الرأس إلى القدم..

إن ما يجرى فى هذه الدنيا ليس عبثًا..

بل إن الأمر جاد بصورة مخيفة.

وفى كتاب المواقف والمخاطبات لابن عبد الجبار بن الحسن النفرى يقول الله لعبده..

أنا أقرب إليك من نفسك..

أنا أقرب إليك من نطقك..

ليس بينى وبينك بين.

وليس بينى وبينك أنت..

•

وتلك هى الحضرة الإلهية الشاملة.. حضرة الذى لا ينام ولا يغيب، ولا يغفل ولا يعزب عنه مثقال ذرة.. الذى يقلب القلوب والأبصار فيجلو معادنها ويكشف أسرارها.. ذلك هو الحق..

والذى لا يخاف الحق ولا يعرف الحق.. فإنه ما خاف وما عرف.. ولن يغنيه بعد ذلك أى علم، ولو حصل علوم الأولين والآخرين..

والرجل الماكر الذى يسألنا دائماً.. كيف يذهب إنسان متحضر فى السويد إلى جهنم.. كيف يذهب ذلك الرجل الأبيض النظيف الجميل اللطيف أستاذ التكنولوجيا إلى جهنم ويذهب حاج مغفل

يبكى عند الكعبة إلى الجنة؟

نقول له: لقد ذهب ذلك الحاج الذى يبكى عند الكعبة بالفعل إلى الجنة من الآن.. إنه من الآن فى الجنة.. لقد أدرك روح المسألة واتصل بالعلم الكلى المطلق.. أما صاحبك فما زال يشتغل بالنحاس والحديد والمنجنيز.. ما زال مشغولا بالمسألة ذاتها.. لم يدرك روحها..

وهذا أمر يفيد فى الدنيا.. ولكن لا قيمة له بعد ذلك والله لم يمنعنا عن كشف الحديد والمنجنيز بل أمرنا به.

﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾.

(٢٥ - الحديد).

وذلك أمر بإدراك المنافع فى الحديد..

ولكن دين الله يقتضى منا التوغل وراء ذلك لإدراك روح المسألة بحثًا عن نفع آخر باق.. وبذلك يجمع المسلم بين نفع الدنيا ونفع الآخرة، فالحديد والمنجنيز ليسا كل شىء.. فالحاج الذى يبكى عند الكعبة ليس مغفلا.. فهو يبكى بسبب علم آخر عميق تعلمه.. هو علمه بنفسه وعلمه بربه.. وهو واقف على عتبة من العلم أعلى من صاحبنا أستاذ التكنولوجيا فى السويد الذى وقف علمه عند الحديد والمنجنيز.

وأين هذا العارف بنفسه والعارف بربه.. من هذا العارف

الآخر الذى توقفت معارفه عند المادة وقوانينها ؟

إن المغفل حقيقة هو الذى عرف المادة وغفل عن رب المادة..

وتحصيل العلوم المادية سهل وهو فى الكتب وفى المدارس وفى مصر وحدها أكثر من عشرة آلاف حامل دكتوراه، وأكثر من مائة ألف حامل ماجستير ودبلوم.

ولكن كم فى هذا البلد من الآحاد أو العشرات ممن يمكن أن يقال عنهم من العارفين بنفوسهم والعارفين بربهم.

لقد حصلت علوم الطب وأنا شاب..

وهأنذا أكتهل دون أن أصل إلى معرفة بنفسى وبربى.. فتلك ذروة لا يبلغها إلا الأفراد..

هؤلاء الذين قال عنهم ربهم:

﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيًّا﴾.
(٥٨ - مريم).

ذلك حال صاحبنا الذى سجد باكيًا عند الكعبة..

وتلك مرتبة ومنزلة ودرجة بينها وبين صاحبنا النظيف اللطيف الذكى المتحضر أستاذ التكنولوجيا السويدى سبع سموات.. هذا سيد من سادة الأرض، صاحب ملك محدود فى زمن محدود.. وذلك سيد على الأولين والآخرين له فى السموات ملك بلا حدود فى أبد بلاتناه..

فمن هو المغفل بالحقيقة؟

ومن هو الفائز بالحقيقة؟

ولكن نحن فى عصر مادى.. وذكر الجنة والسموات أمر يبتسم له أهل الدنيا وسادتها الماكرون، ويضحكون فيه على سذاجتنا ولا أحد يهتم فى هذه الدنيا إلا بالربح العاجل..

ولهذا اقتضى العدل أن يتعامل الله مع هؤلاء الماكرين.. بالمكر الإلهى.. ﴿ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا﴾ (٥٠ - النمل).

وما هم فيه من رخاء وغنى وعلو.. هو استدراج وليس علوًّا.

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾. (٤٤ - القلم).

﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون﴾. (٥٥،٥٦ - المؤمنون).

﴿وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾. (٤٦ - إبراهيم).

وصاحبنا الذكى الذى لا تنفد له حجج إذا رآنا نحكم حول عنقه حلقات المنطق وإذا شعر بمنطقنا يوشك أن يسكته ما يلبث أن يصرخ.

وماذا أساوى أنا إلى جوار عظمة الله.. ولماذا يعذبنى الله وأنا لا أساوى شيئاً.. وهل أنا إلا ذرة تافهة؟

وهو تواضع كاذب وانكسار مفتعل لأنه لو شعر حقًّا بعظمة ربه وبتفاهة نفسه لخر ساجدًا باكيًا أمام هذه العظمة، ولشعر بالخشوع أمام تلك الهيبة.. إنما هى الملاحاة والجدل.

ونرد على مكره فنقول:

لست تافهًا عند ربك ولا هين الشأن، فقد نفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وسخر لك أكوانه كلها، وأعطاك التسرمد والخلود، ومنحك الحرية.. إن شئت كنت ربانيًّا.. وإن شئت كنت شيطانيًّا.

فأين هوان الشأن من هذا كله.

بل هو تحايل الماكرين حينما يصبح ظهرهم إلى الحائط وتتقطع بهم الحجج فيتمسكنون ويتماوتون ويتخافتون ويتهامسون.. هل نحن إلا ذباب يارب..

وهل للتراب أن يتطاول..

وهل للطين عندك شأن يساوى أن تحفل به وتعذبه؟ ولو أحس الواحد منهم بالفعل أنه تراب، ولو انطلقت أعماله وأقواله من هذا الإحساس لكان له مع الله حال غير الحال وشأن غير الشأن.

ولكنه المكر..

ومهما تماكروا.. فالله أمكر..

عن الظاهر والباطن

توقفت أمام صفحة البورصة وسوق الأوراق المالية أتابع تلك الرقصة المجنونة للأرقام.. وأسائل نفسي.

ترى ألنا نحن البشر أيضًا بورصة وأسعار تنخفض وترتفع ويبور الواحد منا أحيانًا ويروج أحيانًا وتفلس قيمته أحيانًا أخرى.

إنى أرى الطفل الرضيع ابن المليونير تتخاطفه العصابات وكأنه قطعة من الماس وتطلب فيه الملايين فدية.. ثم أرى نفس الشخص فى شبابه إنسانا مِتْلافًا مستهترًا.. ثم أراه فى رجولته مجرمًا وقاطع الطريق.. ثم أراه فى شيخوخته معلقًا على حبل مشنقة ولا أحد يعبأ به.

وأرى طفلا آخر يبدأ حياته في ملجأ للأيتام.. ثم أرى نفس الطفل في شبابه وقد أصبح فنانًا ونجمًا متألقًا مثل عبد الحليم حافظ توزن بضع ساعات من صوته بالملايين.

وأرى السجين في زنزانة لا يسأل عند أحد يصبح بين يوم وليلة زعيمًا مثل لينين يحكم نصف العالم بنظرياته ثم أراه يموت فتتحول جثته إلى صنم معبود، وكعبة يطوف حولها الألوف.

وأرى النبى العظيم يوحنا المعمدان تقطع رأسه بأرخص سعر قطع به رأس.. تلبيه لهوى امرأة عاهرة ترقص عارية أمام الملك.. فيقول لها الملك المخمور.. اطلبى ما تشائين ثمناً.. فتقول. أطلب رأس هذا الرجل فيقطع لها رأسه على طبق..

وأرى الراهب ستالين يتحول إلى الملحد ستالين، ثم إلى الحاكم الجبار الذى يحرك التاريخ، والدكتاتور الفرد الذى يعز ويذل ويخفض ويرفع بإشارة من يده، ثم أراه بعد الموت ينتكس إلى مجرم ويدينه شعبه، وينبش تابوته وتحرق جثته ويلقى بها فى حفرة.

وأرى الطفل البليد فى المدرسة يصبح أينشتين.. وأرى موظف البنك يصبح يوهان شتراوس.. وأرى فان جوخ الذى عاش ومات شحاذاً يتحول بعد موته إلى بورصة متحركة من الملايين يتسابق تجار اللوحات، ولصوص التحف على تركته الفنية التى

لا تقدر بثمن، ويصبح توقيعه المزيف أغلى من توقيع مليونير حقيقى..

وتلك أسعارنا بين الهبوط المجنون والارتفاع المجنون فى تلك البورصة الدنيوية التى تبدو وكأنها العبث.

لا ينجو حتى الأنبياء من هذا التقلب فى الأحوال بين البسط والقبض.

وما هو بالعبث وإنما هو تمحيص وفرز وفصل للعناصر بالغليان والتبخير والتبلور.

ولكنها دائماً بورصة خادعة لا تدل تقلباتها السعرية الظاهرية على قيم الناس.. فإن النبى العظيم يوحنا المعمدان الذى قطع رأسه بأبخس الأسعار، بمجرد إشارة من امرأة بغى ومات كأهون ما يكون الموت، وألقيت جثته فى حفرة دون احتفال ودون مشيعين.

ذلك السعر البخس لرجل لا يدل على هوان صاحبه عند الله.. كما أن لينين الجالس على عرش نصف الكرة الأرضية والذى مات فشيعته الملايين، ورثاه الشعراء وتحول جسده المحنط إلى صنم معبود وتحول مرقده إلى كعبة، ذلك السعر التشريفى الرفيع لرجل، لا يدل على شرف صاحبه عند الله..

إنما هى قيم ظاهرية.

وإنما هى بعض ما تتقلب فيه النفس أثناء عملية تمحيصها بالغليان والتبخير.

ولا تنكشف القيم الحقيقية للنفوس إلا بالاستخلاص الأخير لجواهرها، وإخراج مكنوناتها فى ذلك اليوم الهائل، يوم يبعثنا الله بعد موت.. يوم تبرز حقائقنا عارية بين يدى خالقها فى تلك الساعة الرهيبة التى وصفها الله بأنها ستكون «خافضة رافعة» حيث تعود فتخفض ملوكًا جبارين إلى حضيض الهاوية، وترفع رجالا صالحين كانوا فى حياتهم خاملين مغمورين لا يساوون شيئا إلى قمم العزة والكرامة..

وحين ذاك فقط تثبت الأسعار إلى الأبد.. فالأعلون يظلون فى عليين، والأسفلون يظلون فى الأسفلين، وتصبح مكانة كل شخص دالة عليه..

فذلك هو عالم الحق.. حيث كل نفس قد انكشفت منزلتها الحقة.. وبلغت رتبتها الحقة.

وانتهى ذلك التقليب فى الأحوال الذى جعله الله فى الدنيا امتحانًا للعقول وفتنة للنفوس..

وإنى حينما أستعرض حياتى وما تداول عليها من تقلبات وما لابسها من انخفاض وارتفاع.. أشعر أنى ألامس هذا السر.. فإن ما باشرته فى هذه الحياة من متع ولذاذات أشعر الآن بانصرامها

وأنا أتأملها من البعد أنها لا شىء تمامًا.. وأن حكمها حكم الآلام والمشقات التى انقضت هى الأخرى وانصرمت، بل ربما كانت المشقات أكرم على نفسى بما خلفت من بصيرة وفكر واعتبار وجلد ومصابرة، وبما أضافت إلى نفسى من أبعاد إيجابية.

ولذا ما أرانى وجدت نفسى مرة أهفو إلى العودة إلى صبوة أو أرغب فى استعادة لذة، أو أهدهد حنينًا إلى أن يكر بى العمر راجعًا ليقف عند متعة عزيزة..

ذلك ما أرانى قد شعرت به أبدًا..

ربما لإحساس شديد الوضوح بأن نهر الوعى يضيق كلما رجعت إلى الوراء مع صبوات العمر. يضيق بلذته كما يضيق بآلامه.. وأن الوعى دائمًا إلى اتساع والرؤية إلى اتساع، والعقل إلى نضج، والشخصية إلى تكامل كلما تقدم العمر..

ولهذا لا أحب أن أعود إلى نقص مهما حمل إلى هذا النقص وعودًا باللذة.. فإنى لا أراها الآن على البعد لذة... بل أراها مرضًا وحماقة وأرى القيم الظاهرية لتلك البورصة الدنيوية تنتكس فى وجدانى وكأنما تقوم قيامتى. الخافضة الرافعة من الآن.. فتنقلب المدلولات فإذا باللذة ألمًا وإذا بالألم لذة.

وتلك صحوة لا أساوم بها على أى متاع..

وإن كان فى العمر لحظات أعتز بها فعلا فهى لحظات الصحو

أمثال تلك اللحظة.. حينما تتراءى الحقيقة من خلف سراب الوهم وتلامس الروح السر من وراء لثام الواقع، فأرى النفوس على ما هى عليه حقًا، وليس كما تصفها بورصة الواقع بأسعارها الخادعة..

وهى دائماً لحظات تشملها الرجفة والرهبة والخوف من أن ينكشف جوهرى أنا الآخر فى الختام على ما لا يرضينى.. وأن أكون من أصحاب المعادن الدنيا.. التى هى حطب النار..

وذلك هو الغيب المخيف فى أمر الخواتيم التى لا يعلمها إلا الله.

فهرست

صدر للمؤلف

١ - الله والإنسان
٢ - أكل عيش
٣ - عنبر ٧
٤ - شلة الأنس
٥ - رائحة الدم
٦ - إبليس
٧ - لغز الموت
٨ - لغز الحياة
٩ - الأحلام
١٠- أينشتين والنسبية
١١- فى الحب والحياة
١٢- يوميات نص الليل
١٣- المستحيل
١٤- الأفيون .. (سيناريو)
١٥- العنكبوت
١٦- الخروج من التابوت
١٧- رجل تحت الصفر
١٨- الإسكندر الأكبر
١٩- الزلزال
٢٠- الإنسان والظل
٢١- غوما
٢٢- الشيطان يسكن فى بيتنا
٢٣- الغابة
٢٤- مغامرة فى الصحراء
٢٥- المدينة (أو حكاية مسافر)
٢٦- اعترفوا لى
٢٧- ٥٥ مشكلة حب
٢٨- اعترافات عشاق
٢٩- القرآن محاولة لفهم عصرى
٣٠- رحلتى من الشك إلى الإيمان
٣١- الطريق إلى الكعبة
٣٢- الله
٣٣- التوراة
٣٤- الشيطان يحكم
٣٥- رأيت الله
٣٦- الروح والجسد
٣٧- حوار مع صديقى الملحد
٣٨- الماركسية والإسلام
٣٩- محمد
٤٠- السر الأعظم
٤١- الطوفان
٤٢- الأفيون .. (رواية)
٤٣- الوجود والعدم
٤٤- من أسرار القرآن

٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القرود
٤٨- القرآن كائن حَيّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامى
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيخ الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- وبدأ العد التنازلى
٥٩ - حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٦١٩٩	
الترقيم الدولى	977-02-5677-3	ISBN

١/٩٨/٩٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائماً على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.



دار المعارف

٠٤٤٠٦٦/٠١

